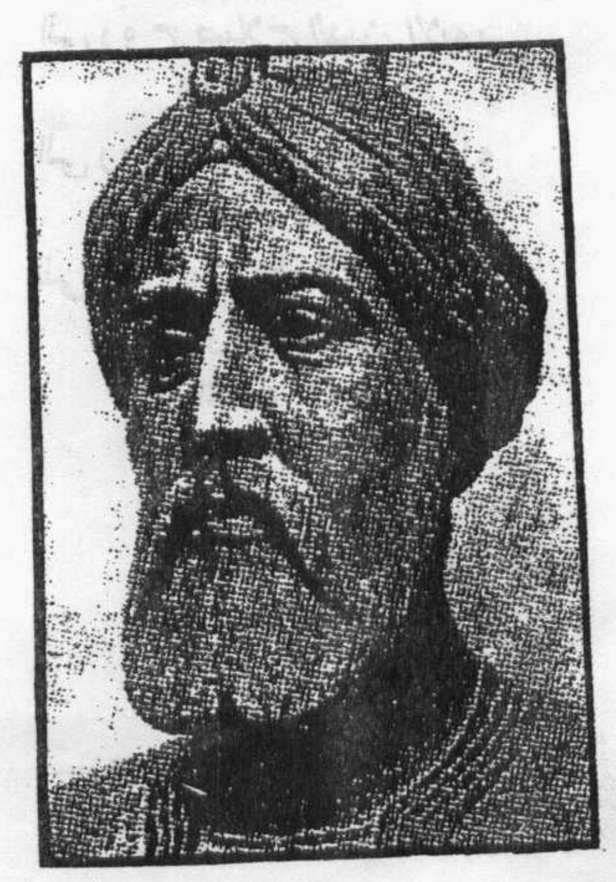
حكايات عربية

صلاح الدين الايوبى

القائد الزاهد



بقلم

حمدى شعبان الصفطى

عضو اتحاد كتاب مصر

الاهداء

الى روح *صلاح الدين الايوبى*
القائد الزاهد
الى روح كل شهيد مات فداء
للوطن الخالد
الى روح من علمانى اولى
حروف الكلام
الوالدة و الوالد

المؤلف
حمدى الصفطى

تصميم الغلاف : مروة حمدى الصفطى

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

أصدقائي القراء الأعزاء – لقد آليت على نفسي أن أكتب عن الشخصيات التاريخية العربية التي أسهمت في صنع التاريخ العربي والإسلامي – تلك الشخصيات التي ذكرتها كتب التاريخ الوسيط والحديث ، والتي ذكرت في المصادر والمراجع العربية والإسلامية .. تلك الشخصيات التي أثرت في مجرى التاريخ ، وكتبت أسماءها بحروف من نور ، بما حققته من إنجازات عظيمة .. وكنت قد قررت أن أكتب عن هذه الشخصيات في سلسلة من الكتب تحت عنوان " حكايات عربية " .. وفعلاً كتبت أول قصة في هذه السلسلة بعنوان (حفيدة بلقيس) التي صدرت أول طبعة لها عام ١٩٩٤م ، والطبعة الثانية صدرت عام ٢٠٠٥م على نفقتي الخاصة .

وعندما كنت أقرأ في بعض الكتب التاريخية ، باحثاً عن الحروب الصليبية ، لاسترجع ما حدث فيها وما كتب عنها ، نظراً لوجود تشابه كبير بين الوجود الاستعماري الصليبي في الشام وفلسطين في

التاريخ الوسيط ، والوجود الاستعماري اليهودي الصهيوني في فلسطين في التاريخ الحديث والمعاصر .. فالاستعمار الصليبي جاء بحجة استعادة مدينة بيت المقدس من أيدي المسلمين لأن بها كنيسة القيامة والمقدسات المسيحية ، والاستعمار اليهودي الصهيوني جاء بحجة الاستيلاء على ما يسمى بحائط المبكى ، وهيكل سليمان ، والمقدسات اليهودية في مدينة بيت المقدس .. والحقيقة أن هذه الحجج ، حجج واهية ، وكلها حركات استعمارية ، والهدف منها السيطرة ، بل السطو على بلاد الغير (بلاد المسلمين) واستغلال ما فيها من خيرات ، بل ونهب هذه الخيرات وحرمان أهلها منها ، فالمسلمون أصحاب البلد لهم فيها مقدسات ، ففيها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين (في مدينة بيت المقدس) ، وفيها المساجد الإسلامية ، وهي مدينة وأراضي عربية إسلامية ، وأهلها مسلمون ، يدينون بالإسلام ، ويتحدثون العربية منذ مئات السنين ، بل إن مدينة بيت المقدس جذورها عربية من آلاف السنين .

وكان القائد البطل العربي المسلم الذي قضى على أحلام المستعمرين الفرنجة الصليبيين هو صلاح الدين الأيوبي ، الذي انتصر عليهم وأخرجهم من البلاد التي استولوا عليها ، وأخرجهم من مدينة بيت المقدس ، وأعادها سالمة إلى أيدي المسلمين ، بعد أن سيطروا عليها فترة طويلة من الزمن .

ولهذه الأسباب توكلت على الله وقررت أن أجعل من شخصية صلاح الدين الأيوبي وحكايته ، هي الحكاية أو القصة الثانية في سلسلة (حكايات عربية) ، وخاصة وأن صلاح الدين له أعمال أخرى عظيمة ، فهو الذي قضى على الدولة الفاطمية في مصر ، وعلى المذهب الشيعي المتشدد بها ، وهو الذي ضم اليمن إلى دولته السنية ، بعد أن كان اليمن تدين بالولاء للدولة الفاطمية الشيعية ، ونشر بها المذهب السني بجانب المذهب الشيعي ، فهو لم يحارب أتباع المذهب الشيعي المعتدلين ، بل حارب أتباعه الذين كانوا يغالون في تشيعهم ويخرجون بذلك عن صحيح الدين ، أما الفرق المعتدلة التي حافظت على الأركان الأساسية في الدين الإسلامي ، فلم يضيق عليهم ، ولم يمسهم بسوء ... وأخذ ينشر المذهب السني

من خلال بناء المدارس التي تدرس هذا المذهب ، كالمدارس الشافعية والحنفية والمالكية .

وكذلك الذي حدا بي للكتابة عن هذه الشخصية ، ما قام به صلاح الدين يوسف بن أيوب من جهود حربية لتوحيد كلمة المسلمين في مصر والشام واليمن وشمال العراق لمواجهة الخطر الصليبي الاستعماري المتواجد في الشام وفلسطين ، والحملات الصليبية الاستعمارية التي تأتي من أوربا عن طريق البحر المتوسط ، ولكي يحقق الحلم الذي طالما حلم به ، وحلم به كل عربي وكل مسلم ، وهو إعادة مدينة بيت المقدس إلى العرب والمسلمين كما كانت قبل استيلاء الصليبيين الفرنجة عليها .. فقد استطاع فعلاً أن يكون دولة موحدة تحت رايته تضم مصر والشام وفلسطين وأطراف العراق واليمن ، واستطاع أن يهزم الصليبيين في موقعة حطين عام ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م .. ثم اخذ في فتح المدن المجاورة لمدينة بيت المقدس ، الواحدة تلو الأخرى ، حتى استطاع أن يدخل القدس منتصراً على الصليبيين الفرنجة في يوم الجمعة ٢٧

من رجب عام ٥٨٣هـ - ٢ من أكتوبر عام ١١٨٧م ، واستعادها للإسلام والمسلمين وحررها بعد تسعين عاماً من الأسر .

ومما قادني للكتابة عن هذه الشخصية ، بالإضافة إلى ما سبق ، أن تكون شخصية صلاح الدين مثلاً وقدوة لشباب الأمة العربية والإسلامية ، وخاصة وأن صلاح الدين قد اعتلى كرسي الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد وهو شاب يبلغ من العمر ٢٢ عاماً ، ويكون بذلك دافعا للشباب أن يتقن عمله ويتفوق فيه ، لكي يعتلي المناصب الكبرى في الدولة .. هذا بالإضافة إلى الصفات الحميدة التي اتصف بها صلاح الدين ، والتي وضحتها وبينتها داخل هذه القصة التاريخية ، من أدب وشجاعة وإقدام ، وحسن تصرف وكرم أخلاق ، كل هذه الصفات يمكن أن يتمثل بها ويتحلى بها شباب هذه الأمة العربية والإسلامية في كل البلاد العربية والإسلامية ، فينصلح بها حالهم وحال هذه الأمة .

بالإضافة إلى هذا كله ، أنني قدمت قصة هذه الشخصية الهامة في أسلوب قصصي واقعي وتاريخي بسيط ومباشر ، معتمداً على عدة مصادر ومراجع تاريخية هامة .. راجياً المولى سبحانه وتعالى أن

يوفقني في إفادة أصدقائي القراء الأعزاء من الشباب بنين وبنات بالذات عن طريق تقديم هذه الشخصية الهامة في تاريخ الأمة العربية والإسلامية لهم ، ليكون مثلاً وقدوة طيبة ، يسيرون على دربها .

وعلى الله قصد السبيل ،

المؤلف

حمدي شعبان الصفطي

طنطا في مارس ٢٠٠٧م

أصل صلاح الدين ونسبه ومولده

أسم صلاح الدين (يوسف) وصلاح الدين صفة له ، وكانت له صفة أخرى أضيفت لاسمه وهي الناصر صلاح الدين ، وأبوه (أيوب) ويلقب بنجم الدين (نجم الدين أيوب) ، وأيوب هو بن شادي بن مروان ، واسم صلاح الدين كاملاً (صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب بن شادي بن مروان) ، وهو من عائلة كردية ، كونت فيما بعد دولة اسلامية عرفت بالدولة الأيوبية أو دولة بني أيوب وهذه العائلة من أشراف الأكراد من قبيلة تعرف بالراودية ، وهي احدى فروع الهذيانية (إحدى قبائل العجم) .. وبني أيوب ينتسبون إلى نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان الكردي والد صلاح الدين .. وقد نشأ نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه ووالدهما شادي ببلدة دوين من أرض أذربيجان (ما بين إيران وتركيا) ودخلا بغداد في خدمة (مجاهد الدين بهروز) حاكم بغداد .. وبهروز هذا إغريقي الأصل (من اليونان) وكان عبداً في بلدة دوين (وهي البلد التي كان يعيش فيها نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه

وأبوهما شادي) .. ثم أصبح له مركزاً كبيراً في حكومة الأتراك السلاجقة ، حتى أصبح معلماً ومربياً لأولاد السلاجقة على أيام السلطان السلجوقي مسعود بن ملكشاه ، بل إنه أصبح مربياً لأولاده ، وكان بهروز صديقاً لشادي عندما كان في بلدة دوين .. فأرسل بهروز إلى شادي وولديه ، ومكثوا عنده فترة من الزمن .. فلما تولى بهروز حكم بغداد من قبل السلطان مسعود بن ملكشاه ، أخذ معه شادي وولديه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، ولما أقطعه السلطان قلعة كريت في شمال العراق ، ولى عليها شادي نائباً عنه ، فلما مات شادي ، ولى بهروز مكانه ابنه نجم الدين أيوب لأنه كان أكبر من أخيه أسد الدين شيركوه ، وبذلك عرف نجم الدين أيوب طريق الإمارة لأول مرة

والأكراد جيل من الآريين ، ليسوا بعرب ولا ترك ، وإنما هم خليط من الفرس والعرب ، عاشوا زمناً طويلاً في الجهات الجبلية بين بلاد الفرس وآسيا الصغرى ، وكانوا يشبهون عرب الجاهلية في عصبيتهم القومية ، وفي ميلهم للفروسية والحرب والقتال ، وإكرام الضيف ، والمحافظة على الشرف ، والإقدام والشجاعة ..

والأكراد يتكلمون الفارسية بألفاظ عربية وعراقية ، وقد أسلم الأكراد ، وانتشروا بعد ذلك في شمال العراق ، بين نهري دجلة والفرات في منطقة كردستان (أي بلاد الأكراد) .. ومن هذه الأمة ومن أكبر قبائلها وأشرفها ، نشأت أسرة صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان ، ويمد ابن خلدون في نسب هذه الاسرة كما جاء في الجزء الخامس من تاريخ ابن خلدون ص ٢١٨ عند كلامه عن الدولة الأيوبية حيث يقول ((وجدهم هو أيوب بن شادي بن مروان بن علي بن عشرة بن الحسين بن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز بن هدية بن الحصين بن الحرث بن سنان بن عمر بن مرة بن عوف الحميري)) .. ومن هذه الأسرة ولد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بمدينة (تكريت) بالعراق ، وذلك عام ٥٣٢هـ - عام ١١٣٨م (كما جاء بدائرة المعارف الإسلامية) .. وكانت ولادته يوم أمر مجاهد الدين بهروز (صاحب تكريت) والده وعمه بمغادرة تكريت ، حيث رحلا إلى (عماد الدين زنكي) في الموصل شمال العراق ، لان نجم الدين أيوب كان قد ساعد عماد الدين زنكي في العودة إلى الموصل

، حيث عمل له الجسور على نهر دجلة وسهل له عبوره ، وأمده بالمياه والأكل بعد هزيمة جيشه عام ٥٢٠هـ - ١١٢٥م في شمال العراق أمام جيوش الخليفة العباسي (كما جاء بدائرة المعارف التي ألفها محمد فريد وجدي) .. وقد استقبلهما عماد الدين زنكي استقبالاً حسناً ، وعاش نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه ، ومعهما المولود الصغير (صلاح الدين يوسف بن أيوب) في الموصل في سلام واطمئنان ، ثم عمل كل من نجم الدين وشيركوه في جيش عماد الدين زنكي ، ولما استولى زنكي على (بعلبك) — وهي مدينة من مدن لبنان الآن ، وكانت تابعة لحكام دمشق في ذلك الزمان – عام ٥٣٤هـ - ١١٣٩م – ولى عليها نجم الدين أيوب .

* * *

نشأة صلاح الدين وتربيته

قضى صلاح الدين في (بلعبك) بعض سنين طفولته وهي من أسعد السنين وأجملها ، فقد التحق (بالكتاب) كغيره من أبناء المسلمين ليحفظ القرآن الكريم وليتعلم القراءة والكتابة ، وتعلم (بالكتاب) أيضاً مبادئ النحو ومبادئ الشعر وقواعد اللغة العربية ، فقد جرت العادة أن يتعلم أولاد حكام المسلمين مهما كانت جنسيتهم القرآن الكريم واللغة العربية والحديث الشريف والنحو وقواعد اللغة.

ولما توفى عماد الدين زنكي ، اقتسم أولاده ملكه من بعده ، واستولى ولده نور الدين محمود على الشام ، فهب حكام دمشق لاسترجاع (بعلبك) . ونظراً للظروف التي حدثت في ذلك الوقت فقد سلم نجم الدين أيوب حاكم (بعلبك) المدينة لحكام دمشق بشرط أن يعطوه عشرة ضيعات بجوار دمشق وقصراً يسكنه في دمشق نفسها ، ووافق حكام دمشق على شروطه ، وانتقل صلاح الدين مع أبيه إلى مقره الجديد في دمشق .. ونظراً لبراعة نجم الدين أيوب الحربية ، فقد وصل إلى مرتبة قائد قواد الجيش في دمشق .. أما

أخوه أسد الدين شيركوه ، فقد عمل في جيش نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (حاكم حلب وما حولها) حتى وصل شيركوه إلى مرتبة قائد الجيش ، وأرسل نور الدين محمود جيشه بقيادة شيركوه إلى دمشق للاستيلاء عليها عام ٥٤٧هـ - ١١٥٢م ، فلم يشأ نجم الدين أيوب أن يقاتل أخاه أسد الدين شيركوه ، فدخلتها قوات نور الدين بقيادة شيركوه (كما تقول دائرة المعارف الإسلامية) في نفس العام .. وكافأ نور الدين محمود – نجم الدين أيوب بتعيينه حاكماً على دمشق عام ٥٤٩هـ - ١١٥٤م – وكان صلاح الدين يبلغ من العمر ١٧ عاماً في ذلك الوقت – وفي دمشق استمع صلاح الدين في علم الحديث الشريف لأبي طاهر السلفي ، و للشيخ قطب الدين النيسابوري ، وعبد الله بن بري ، وغيرهم .. وكان صلاح الدين يتردد إلى مجلس نور الدين محمود وكان له من الاعتبار والاحترام في هذا المجلس لكونه ابن حاكم دمشق وأميرها ، وللصفات التي اتصف بها صلاح الدين ، كشاب هادئ الطبع مهذب ورزين وعاقل وحكيم ، بالإضافة إلى ذلك فقد

كان محباً للصيد وركوب الخيل ، ومنازلة الحيوانات الكاسرة المفترسة .

وقد أخذ صلاح الدين عن نور الدين محمود في مجالسه ، الحكمة ، والرأي السديد ، وأخذ عن أبيه أيوب وعمه شيركوه ، الشجاعة والإقدام والفروسية .

وقد جمع صلاح الدين ، بين أصله الكردي ، وعاداته العربية ، وبين نباهة والده وسمو منزلته ، فهو ابن حاكم دمشق وأمير من أمرائها المقربين إلى نور الدين محمود ، الذي تعلم منه صلاح الدين ، طرق الخير ، وفعل المعروف ، والاجتهاد في أمور الجهاد ، والحكمة في الفصل بين الأمور .. وقد تولى صلاح الدين عدة وظائف من قبل مولاه نور الدين محمود قبل مجيئه إلى مصر مع عمه أسد الدين شيركوه في حملاته العسكرية من قبل نور الدين ، على مصر ، ثم بعد ذلك ، عندما أصبح صلاح الدين وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد في مصر .. وقد جمع صلاح الدين بين ذلك كله ، وبين العادات والتقاليد العربية والإسلامية ، من كرم وشجاعة ، وشهامة ، وغيرة على الشرف ، وحب الخير ، وغيرة على الإسلام

والدفاع عنه ، وحب الحرية ، وكراهية العبودية والاستبداد ، وحب العطف على الفقير والضعيف ، ونصرة الملهوف والمظلوم ، وردع الظالم .

* * *

زواج صلاح الدين ومعاملته لأسرته

لم يعرف المؤرخون الكثير عن حياة صلاح الدين الأسرية ، وإنما من المؤكد أنه تزوج صغيراً كبقية الشباب في ذلك التاريخ ، والذي يؤكد ذلك توليه الوزارة للخليفة العاضد الفاطمي ، وكان يبلغ من العمر ٢٢ عاماً ، فمن غير المعقول أن يتولى الوزارة في ذلك الزمان من غير أن يكون متزوجاً ، ومن المؤكد أيضاً أنه تزوج أكثر من واحدة ، وذلك لأن الأستاذ محمد فريد وجدي ذكر في دائرة المعارف الذي ألفها في الطبعة الثانية عام ١٩٢٤م ص ٥٥٩ ، عندما كان يتحدث عن موت صلاح الدين الأيوبي ، أنه مرض بالحمى ، وكان حوله أولاده (الملك الفاضل والملك الظاهر ، والملك الظافر مظفر الدين الخضر ، المعروف بالمشمر) وهم أولاده الكبار ، وحوله أيضاً أولاده الصغار ، وأنه مات بالحمى في دمشق عام ٥٨٩هـ ١١٩٣م ، مما يدل على أن أولاده الكبار ، كانوا من زوجة ، والصغار كانوا من زوجة أخرى ، فقد توفى صلاح الدين ويبلغ من العمر ٥٧ عاماً وكان له أولاد صغار ، مما يدل على أنه تزوج من زوجة أخرى صغيرة تستطيع الإنجاب ، لأنه

من المؤكد أن الزوجة الأولى كانت قد بلغت من الكبر بحيث أنها لا تستطيع الإنجاب ، لأن أبنائها الكبار المذكورين ، كانوا قد أصبحوا ملوكاً وحكاماً على بعض ممتلكات صلاح الدين في دولته الكبرى .

والواضح من صفات صلاح الدين الأيوبي ، التي ذكرها المؤرخون ، أنها صفات حميدة ، وعديدة ، فقد كان ورعاً ، شديد التدين ، يحترم رجال الدين ، ويتصف بالحكمة ، والعدل ، والشجاعة ، والكرم ، وغير ذلك مما ذكرنا سابقاً .. وكان صلاح الدين يسير في أسرته سيرة حسنه ، وكان رحيماً بأولاده ، وزوجاته ، عطوفاً عليهم ، فقد ذكر المؤرخون ، أنه كان محباً لأولاده وأهله ، وكثيراً ما كان يشارك أطفاله في لعبهم ، وذكر المؤرخون أيضاً أنه ربى أولاده تربية دينية صالحة ، وتربية حربية وقيادية لينفعوا أوطانهم من بعده .

* * *

خبرة صلاح الدين الحربية

عاش الأكراد – الذي ينتسب إليهم صلاح الدين – في زمنهم الأول ، عيشة البدويين وسكان الجبال ، وكانوا أهل فروسية ، يحبون القتال والغزو ، وعرفت عنهم المقدرة الحربية ، ولما كانوا أهل بداوة ، فقد عشقوا الحرية والاستقلال ، فلما كانوا تحت سيطرة الفرس ، كانوا على الدوام يظهرون العصيان ، ويقومون بالثورات ، ولما خضعوا للسلاجقة كانوا أيضا يقومون بالثورات ، وتلك الثورات كانت سببا في انفصال عشائر عدة منهم ، اتخذت حياة الترحال والتنقل .. والأكراد يفاخرون بالشرف والنسب والحسب ، وقد انتشر الأكراد في منطقة كردستان شمال العراق . وقد ورث صلاح الدين ذلك كله ، وورث قوة التحمل وحب القتال ، والمقدرة الحربية ، والفروسية ، وقوة العزيمة ، والصبر على المكاره ، وإكرام الضيف ، وشرف الكلمة ، وقد تعلم من أبيه نجم الدين أيوب ، ومن عمه أسد الدين شيركوه ، الشجاعة والإقدام ، وحب المغامرة والفروسية ، فقد كان أبوه نجم الدين قائد جيوش صاحب دمشق ، وكان عمه شيركوه قائد جيوش نور الدين محمود صاحب حلب ..

ولما استولى نور الدين محمود على دمشق ، أصبح نجم الدين أيوب حاكماً على دمشق من قبل نور الدين (عام ٥٤٩هـ - ١١٥٤م) .. وكان من عادة الأمراء في تلك الجهات ، حب الصيد والقنص ، ومنازلة الحيوانات المفترسة ، وتربية الطيور الجارحة ، فأخذ عنهم صلاح الدين حب ذلك كله ، وحب ركوب الخيل ، والاشتراك في مسابقات ركوب الخيول .. وقد اشترك صلاح الدين مع والده في الحروب التي حدثت في الشام وكذلك اشترك مع عمه شيركوه في الحروب التي حدثت في مصر ، وقد ابلى صلاح الدين في هذه الحروب ، بلاء حسناً ، وأبدى من صنوف الشجاعة والإقدام ، وذكاء التخطيط الحربي ، وقوة الإرادة ، حتى شهد له الجميع بالتفوق الحربي ، وحسن التصرف في المواقف الحرجة .

وقد اصطحبه عمه شيركوه في الحملات الثلاث التي توجه بها إلى مصر بأمر من نور الدين محمود ، أثناء الصراع بين شاور وضرغام على الوزارة ، في أواخر أيام الخليفة العاضد الفاطمي آخر خليفة للدولة الفاطمية في مصر (كما سنوضح فيما بعد) ..

وقد عينه عمه شيركوه حاكما على الإسكندرية ، نظرا لما تمتع به صلاح الدين من خبرة في الحكم (لأنه كان من جلساء نور الدين محمود في مجالسه ، فتعلم منه حسن إدارة الأمور) .. وقد ظهرت هذه الخبرة الحربية وحسن إدارة الأمور عند صلاح الدين بصورة واضحة ، عندما بدأ يحارب الأمراء المسلمين في الشام ، والأمراء الفرنجة الصليبيين في فلسطين ، أي عندما كان يحارب الأمراء المسلمين لكي يوحد الإمارات العربية ، ويقيم دولة قوية تحارب المستعمرين الصليبيين المسيطرين على بيت المقدس . والمدن الساحلية في الشام ، وعندما كان يحارب الصليبيين العراة ، لكي يسترد منهم المدن التي سيطروا عليها ، لكي يحاصر بذلك مدينة بيت المقدس ، ويحقق الحلم الذي راوده وراود جميع المسلمين في استعادة مدينة القدس مرة أخرى إلى أيدي المسلمين ، كما كانت طاهرة مطهرة ، كما سنرى عندما نتحدث عن حروبه ضد الفرنجة الصليبيين المستعمرين .

* * *

اعتلاء صلاح الدين كرسي الوزارة

في عهد الخليفة الفاطمي العاضد

ظهرت فتنة الوزارة في مصر في أواخر الدولة الفاطمية حيث أصبح الأمر كله في يد الوزراء ولم يكن للخلفاء الفاطميين في ذلك الوقت حولاً ولا قوة ، لدرجة أن الوزير كان يقوم باختيار الخليفة الجديد بعد موت سابقه مثلما حدث للوزير الصالح بن رزيك وزير الخليفة الفائز بنصر الله الفاطمي عند استخلافه العاضد خليفة من بعد الفائز، ولما توفي الوزير الصالح بن رزيك عام ٥٦٢هـ – ١١٦٧م أوصي ولده العادل الذي أصبح وزيرا للعاضد بعد موت والده ، أوصاه ألا يغير شيئا مما بيد (شاور بن مجير أبى شجاع السعدي) الذي كان واليا علي الصعيد ، ولكن العادل خالف نصح والده فأصدر أمراً بعزل شاور عن الصعيد، فجمع شاور الجموع ووصل القاهرة وألقى القبض علي العادل وقتله ، ونهب أمواله وأموال بنى رزيك ، واستولي علي ممتلكاتهم ، وتولى الوزارة ولقبه الخليفة العاضد الفاطمي بأمير الجيوش ، ولكن ما لبث أن ثار ضده نائب حاجب الخليفة وهو

أمير يقال لـه (الضرغام بن سواد) ويلقب بالمنصور ، ونازع شاور الوزارة ، وظهر أمره وعلت كلمته وقويت شوكته ، حتى اضطر شاور إلي الهرب للشام والاستنجاد بنور الدين محمود، فأرسل نور الدين محمود قائده أسد الدين شيركوه علي رأس حملة عسكرية إلي مصر، وأخذ شيركوه كلا من شاور وابن أخيه صلاح الدين معه في الحملة وتسمي هذه الحملة في التاريخ باسم (حملة نور الدين محمود الأولى علي مصر) واستطاع شيركوه أن يحتل الفسطاط ويدخل بعد ذلك القاهرة، وقد ثار الشعب ضد (ضرغام) وقتله، وبذلك عاد (شاور) للوزارة مرة أخرى، إلا أن شاور امتنع عن تنفيذ ما وعد به (نور الدين محمود) من أموال وإبقاء حامية من جيش نور الدين في القاهرة، فأرسل شيركوه ابن أخيه صلاح الدين لاحتلال بلبيس مما دفع شاور للقيام بالاستنجاد بالصليبيين في فلسطين (بالملك أمورى ملك مملكة بيت المقدس) الذي أرسل جيشا إلي مصر ليس حبا في شاور – ولكن طمعا في مصر نفسها. وعند وصول جيش أموري (أملريك) إلي مصر تحصنت قوات نور الدين بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين في بلبيس، وظلت

الحرب بين الجيشين نحواً من ثلاثة أشهر قام خلالها نور الدين محمود بمحاربة الصليبيين الفرنجة في فلسطين و الشام،فكان لابد لأموري (أملريك) من العودة لبلاده لحمايتها من غزوات نور الدين،فاتفق مع شيركوه على الصلح و الخروج من مصر وتم فعلا الصلح وخرج الفريقان من مصر .

وظل شاور يتقرب من الصليبين الفرنجة ويطلب منهم المساعدة والحماية فبعثوا له بجيش أقام في الأراضي المصرية لحمايته، فألح شيركوه علي نور الدين في غز ومصر مرة أخري،وفعلا وافق نور الدين فأرسل جيشا بقيادة شيركوه الذي اصطحب ابن أخيه صلاح الدين معه للمرة الثانية (وتسمى هذه الحملة باسم حملة نور الدين محمود الثانية علي مصر) ووصل شيركوه بجنوده إلي الجيزة وعسكر بها،وفي الجهة الأخرى من النيل عسكر جنود الملك أموري (أملريك) وعندما بدأ (أموري) عبور النيل ليلا للقاء جيش شيركوه أسرع شيركوه بجيشه نحو الصعيد،وتتبعه (أموري) حتى وصل الجيشان مكان يسمى (البابين) وتقابل الفريقان عند هذا المكان وحدثت معركة كبيرة،

انتصر فيها شيركوه وجيشه انتصارا كبيرا بفضل ما قام به صلاح الدين من جهد في هذه المعركة،ولم يتتبع شيركوه أعداءه بل ذهب إلي الإسكندرية وأقام عليها ابن أخيه صلاح الدين،وعاد شيركوه بنصف جيشه إلي الصعيد،وقد حاصر الصليبيون الفرنجة واتباع شاور صلاح الدين وجنده بالإسكندرية،وظل صلاح الدين يقاوم الحصار أكثر من سبعين يوما،ولما علم الفرنجة أن شيركوه يحاصر القاهرة طلبوا الصلح وفعلا حدث الصلح بين الفريقين علي أن يخرج كل منهما من مصر ... وغادر الجيشان مصر،ولكن الملك (أموري) ما لبث أن طمع في مصر مرة أخري،وكاتب إمبراطور الإغريق (بلاد اليونان) لكي يساعده علي غزو مصر،وقام (أموري) بغزو مصر بسرعة دون الانتظار لمساعدة الإغريق، واحتل بلبيس (شرق الدلتا) ونقض عهده مع شاور والمصريين، وعهده مع شيركوه قائد نور الدين محمود،فقد كان هذه المرة طامعا في مصر يريد غزوها والسيطرة عليها،وأخذ شاور يكاتب (أموري) ويسأله عن سبب هذه الحملة علي مصر،ولكن (أمورى) لم يهتم فأمر شاور بحرق الفسطاط حتى لا يحتلها (أموري)

بجيشه ..... وهذا ما جعل الخليفة العاضد الفاطمي يقوم بمكاتبة نور الدين محمود ويستنجده ضد شاور والصليبيين الفرنجة،فأرسل نور الدين محمود قائده أسد الدين شيركوه بجيشه للاستيلاء علي مصر لحمايتها من الصليبيين،ومساعدة الخليفة الفاطمي العاضد،وتسمي هذه الحملة (حملة نور الدين محمود الثالثة علي مصر) .... وعلم أموري (أملريك) ملك بيت المقدس بقدوم شيركوه وجيشه فخرج فاراً وهرب من مصر عام ٥٦٤هـ ١١٦٩ م، ووصل شيركوه إلي مصر وعسكر بجيشه أمام القاهرة،وخرج الأهالي لتحيته وتحية جنده واستقبله الخليفة الفاطمي العاضد بالحفاوة ولإكرام .

كان شاور يريد الغدر بشيركوه ويريد أن يقتله ، ولكن شيركوه أحس منه الغدر فأمر بقتله ، فظفر به اتباع شيركوه وقتلوه ، وأرسلوا رأسه للخليفة العاضد ، فاطمأن الخليفة واستدعى أسد الدين شيركوه ، وخلع عليه خلعة الوزارة ، ولقبه بالمنصور أمير الجيوش ، وخرج شيركوه من قصر الخليفة إلى دار الوزارة ولكنه لم يستقر في الوزارة غير شهرين فقط ، حيث توفى في

نفس العام (في جمادى الآخرة ٥٦٤هـ - مارس ١١٦٩م) .. وكان صلاح الدين الأيوبي مع عمه شيركوه في كل أعماله ، يعاونه ويشير عليه ، وقد تعلم صلاح الدين من عمه شيركوه الكثير ، فقد كان عمه شيركوه بعيد النظر ، وكان يضع الخطط ويقوم بتنفيذها ولا يغيرها ، بل كان ينفذها بكل جسارة وإقدام .

مات شيركوه وأقام له صلاح الدين العزاء ثلاثة أيام ، والأمراء والخليفة العاضد في شغل شاغل ، يبحثون عن الذي يليق بالوزارة بعد شيركوه ، وجاءت كلمة الخليفة العاضد بتولية صلاح الدين الأيوبي الوزارة ، وهو الشاب الذي يبلغ من العمر (٢٢ عاماً) ، تولى يوم (الاثنين ٢٥ من جمادى الآخرة ٥٦٤هـ - ٢٦ مارس ١١٦٩م) ، ولقب يومها بالملك الناصر أبو المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب ، وهو لقب استحقه عن جدارة .. وقد كانت الوزارة في ذلك الوقت لها سطوة وقوة ، فلم يكن هناك غير وزير واحد ، يدير أمور البلاد ، وهو المسيطر تماماً ، والحاكم الحقيقي للبلاد .

رأى صلاح الدين من الحكمة أن يرضى المصريين حتى لا يقوى أمراؤهم بهم عليه ، فأغدق عليهم نعماً كثيرة ، وعاملهم بما وهبه الله من كرم ولطف وعطف وحسن خلق ، مما حببهم فيه ، وقربه إليهم ، ورأى ألا يثير غضبهم وهم شيعة ، قضوا نحوا من قرنين تحت حكم الخلفاء الفاطميين الشيعة ، وهو السني الذي يتبع الخلافة العباسية السنية في بغداد ، فأبقاهم على مذهبهم ، واكتفى بذكر اسم نور الدين محمود بعد اسم الخليفة العاضد الفاطمي على المنابر .. وكذلك مما حبب المصريون فيه ، ما ناله من شهرة في حرب الصليبيين الفرنجة عندما كانوا يحاصرون دمياط ، فقد قام بردهم والانتصار عليهم ، واستولى على مدينة العقبة ، وهي مفتاح البحر الأحمر ، لطريق الحجاج المصريين إلى مكة المكرمة ، فبسبب حب المصريين لصلاح الدين ، نظراً لأخلاقه الكريمة ، وأفعاله العظيمة ، أخذوا ينضمون إلى إخوانهم اتباع المذهب السني ، وراء راية صلاح الدين ، يقاتلون عدو الله وعدوهم جميعاً من الغزاة الطامعين في بلادهم .. وقد كانت راية صلاح الدين الأيوبي ، عبارة عن راية من القماش الأصفر

يتوسطها صورة نسر أحمر اللون ، وكان أفراد الجيش كلهم ينضمون تحت لواء هذه الراية المنتصرة .

وقد واجه صلاح الدين عدة مؤامرات ، استطاع بحب الناس له أن يقضي عليها جميعا .. فعندما دبر له مؤتمن الخلافة (وهي وظيفة في عهد الخليفة الفاطمي العاضد توازي أمين سر الخلافة) حيلة للقضاء عليه ، وذلك بأن كتب إلى الصليبيين الفرنجة بالزحف على مصر ، فعندما يصلوا أو يخرج لهم صلاح الدين ، يقوم مؤتمن الخلافة بثورة ضد صلاح الدين ويقضي عليه ، وأرسل هذه الرسالة داخل (حذاء) جديد وأعطاه لرجل من رجاله ليذهب به إلى الفرنجة الصليبيين ، ولكن الحذاء وقع في يد أحد أتباع صلاح الدين فبلغه بالرسالة وأطلعه عليها ، فيعلم صلاح الدين بتفاصيل المؤامرة ، ويتخلص من مؤتمن الخلافة بالقتل .

وعندما قام السودان في مصر بثورة بعد مقتل مؤتمن الخلافة .. وكان عددهم خمسون ألف – فقضى عليهم بمساعدة أخيه (شمس الدولة طوران شاه) ، وكان صلاح الدين قد استدعى والده نجم الدين أيوب ، وأخوته جميعاً لمعاونته في شئون الحكم عقب توليه

الوزارة في مصر .. وبعد هزيمة السودانيين ، أقام على عمال قصر الخليفة (بهاء الدين قراقوش) عامله المخلص والأمين .. وفي عام ١١٧٤م ثار بقية من السودانيين في أسوان بقيادة (كنز الدولة) ، فقام العادل أخو صلاح الدين وقاتلهم ، وقتل زعيمهم (كنز الدولة) ، وقضى عليهم نهائياً عام ١١٧٦م .

* * *

قضاء صلاح الدين على الدولة الفاطمية

وعودة مصر سنية

ثبتت قدم صلاح الدين الأيوبي في مصر ، بعد أن رد الصليبيين الفرنجة عن دمياط ، عندما حاولوا الاستيلاء عليها وغزو مصر ، وبعد أن استولى على مدينة العقبة وهي مفتاح البحر الأحمر لطريق الحجاج المصريين والمسلمين إلى مكة المكرمة - وبعدما قضى على ثورة السودان في القاهرة ، وعلى ثوارهم في أسوان بقيادة قائدهم (كنز الدولة) ، وحيث قام العادل أخو صلاح الدين بقتالهم وتتبعهم (من عام ١١٧٤م حتى عام ١١٧٦م) حتى قضى على ثوراتهم نهائياً .

بعد ذلك اراد صلاح الدين أن يخطو خطوة أخرى نحو الاستقلال بمصر ، فأخذ في نشر المذهب السني ، لكي يحول أهل مصر عن المذهب الشيعي إلى المذهب السني الذي هو مذهبه ومذهب الدولة العباسية في بغداد ، فأسس المدارس السنية ، كالمدرسة الناصرية نسبة إليه ، والمدرسة الكاملية نسبة إلى أخيه الكامل ، وكان بمصر داراً تسمى دار المعونة ، يحبس فيها من يراد حبسه ، فهدمها

صلاح الدين وبنى مكانها مدرسة للمذهب الشافعي السني ، وكان بمصر (القاهرة) داراً للعدل ، فجعلها صلاح الدين للمذهب الشافعي أيضاً ، وعزل قضاة الشيعة في مصر ، وأقام فيها قاضياً شافعياً سنياً ، وأرسل نواباً له من القضاة الشافعيين في جميع البلاد .. وأخذ يتحين الفرص لتغيير خطبة الجمعة وجعلها باسم الخليفة العباسي في بغداد بدلاً من الخليفة الفاطمي في مصر ، وكان نور الدين محمود والخليفة العباسي يلحان عليه في ذلك ، لكنه لم يشأ أن يسرع في تحقيق ذلك حتى يتمكن هو من امره واستقراره في مصر أولاً ، كما أنه كان يرى في بقاء الخليفة الفاطمي العاضد ما يساعده على البقاء في مركزه كوزير لأن العاضد هو الذي اختاره وزيراً له ، كما أنه كان يرى في الخليفة العاضد عوناً له في الاستقلال عن نور الدين محمود .. وكذلك تباطأ في قطع الخطبة للعاضد الفاطمي حتى يتم له نشر المذهب السني من جهة وحتى يتمكن من جذب جميع المصريين إلى جانبه من جهة أخرى ، وبذلك رأى صلاح الدين من الحكمة انتظار الفرص الملائمة لذلك .. وجاءت الفرصة عندما مرض الخليفة

الفاطمي العاضد ، وعندما زاد إلحاح نور الدين محمود عليه بقطع الخطبة للعاضد ، فجمع صلاح الدين قومه واستشارهم في ذلك ، فقام من وسط القوم عالم من الأعاجم يقال له (الأمير العالم) وأوضح أنه سيقوم هو بذلك ، فأخذ سبيله إلى المسجد وخطب للخليفة العباسي المستضئ بالله ، وأمر صلاح الدين أتباعه بعدم إخبار الخليفه العاضد المريض بذلك الأمر ، فقال لهم " إن عوفي فهو يعلم " وإن توفى فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته .. وقوبلت الخطبة بسكون وهدوء ، فقد كان الناس يتوقعون ذلك . وما لبث أن توفى الخليفة الفاطمي العاضد في المحرم من عام (٥٦٧هـ - ١١٧١م) وبوفاته انتهت الدولة الفاطمية في مصر .. وأصبح صلاح الدين الأيوبي بموت العاضد الفاطمي حاكم مصر وسيدها المطلق ، ليس لأحد فيها كلمة سواه .. وقام صلاح الدين بعمل مأتم للعاضد لمدة ثلاثة أيام ، وشيع الخليفة العاضد إلى قبره بكل حفاوة وإكرام ، ثم أمر عامله (ووزيره فيما بعد) بهاء الدين قراقوش بفتح خزائن مصر ، وفرقها على قومه واتباعه ، ولم يأخذ لنفسه شيئاً ، واعتق الجواري .. وبالنسبة للكتب ، فقد أحضر

القاضي الفاضل وأمره باختيار ما هو صالح للأمة وللدولة فيحتفظ به ، وما فيه من تشيع مغالا فيه فيحرقه ، وما فيه بعض الفائدة يوزعه على الناس .. فتسلم القاضي الفاضل منها (١٢٠ ألف مجلد) والباقي باعه وأدخل ثمنه بيت المال .. ولم يرغب صلاح الدين في سكن قصر العاضد ، وإنما ظل في بيت الوزارة ، ولم يبهره مظهر جمال القصر أو حدائقه الغناء ، إلا أن صلاح الدين وجد مصر بدون قلعة تحميها فعزم على بناء هذه القلعة ، فقام بضم الفسطاط (عاصمة مصر في عهد عمرو بن العاص) ، والعسكر (عاصمة مصر في عهد العباسيين) ، والقطائع (عاصمة مصر في عهد أحمد بن طولون) ، وقاهرة المعز (عاصمة مصر في عهد الفاطميين) وأقام حولهم جميعا سوراً كبيراً ، وأقام قلعة كبيرة داخل ذلك السور لتحمي هذه العاصمة الجديدة الكبيرة .. وانتقل صلاح الدين للقلعة وجعلها مقاماً له ، ودار الدواوين حكومته ، وكان ذلك كله مؤشراً على نية صلاح الدين الأيوبي في الاستقلال بمصر ، إلا أنه رغم ذلك فضل أن يذكر اسم نور الدين محمود بعد اسم الخليفة العباسي ، على

المنابر في خطبة الجمعة ، وضرب النقود (صنعها) باسم نور الدين محمود ، وأرسل له الهدايا من كنوز قصر الخليفة الفاطمي الذي توفى ، حتى لا يرتاب نور الدين من ولاء صلاح الدين له ، وفي نفس الوقت بنى هذه القلعة لتكون له ولأهله حصناً ، وأعد جيشاً قوياً ، وتجنب الصدام مع نور الدين أو ملاقاته ، وتجنب أي خلاف معه ، إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً ، فنور الدين لم يرسل جيوشه إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، إلا لكي تكون مصر ملكاً خالصاً له ، فقام أمراء الجيش الذين امتنعوا عن خدمة صلاح الدين (حقداً عليه) ، وعادوا إلى نور الدين محمود ، قاموا بالعمل على إثارته ضد صلاح الدين ، وكذلك مما أغار صدر نور الدين على صلاح الدين ، أن صلاح الدين عزم على غزو حصن الشوبك في فلسطين (وكان تابعاً للصليبيين الفرنجة) ، ولكنه رجع إلى مصر عندما علم بقدوم نور الدين إليه ، فأوغر ذلك صدر نور الدين عليه ، وعزم على غزو مصر ، وطرده منها ، إلا أن أموراً كثيرة شغلته عن ذلك ، وخاصة في ملكه بشمال العراق والشام .. واستمر الحال على هذا المنوال ، إلى

أن مات نور الدين محمود في (٢١ شوال عام ٥٦٩هـ - ١٥ مايو عام ١١٧٤م) ، فاستقل صلاح الدين الأيوبي نهائياً بمصر .

* * *

حروب صلاح الدين وتكوينه لدولته

بعد موت نور الدين محمود (٥٦٩هـ - ١١٧٤م) ، قام صلاح الدين الأيوبي يخطو بخطى واسعة نحو تكوين وتدعيم دولته التي كان يحلم بها والتي عمل من أجلها منذ أن خطت قدمه أرض مصر مع عمه أسد الدين شيركوه ، ومنذ أن حارب معه الصليبيين الفرنجة الدين استعان بهم كل من شاور وضرغام أثناء صراعهما على الوزارة في عهد الخليفة الفاطمي العاضد ، ومنذ أن تولى الوزارة في مصر من عام ٥٦٤هـ حتى عام ٥٦٩هـ (١١٦٩م – ١١٧٤م) وذلك بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه الذي تولى الوزارة عدة شهور في عهد العاضد الفاطمي ، ولم يجد العاضد أحداً أجدر بالوزارة بعد شيركوه إلا ابن أخيه الشاب صلاح الدين الدي شاركه في حروبه ضد المتصارعين على الوزارة في أواخر عهد العاضد وضد الصليبيين الفرنجة الذين أتوا إلى مصر طمعاً فيها ، ثم بعد ذلك تخلص من ثورة العبيد في مصر والسودان بقيادة أخيه طوران شاه ثم بقيادة أخيه العادل ، وكذلك غزوه لبلاد اليمن بقيادة أخيه طوران شاه ، والقضاء على غزو الصليبيين الفرنجة

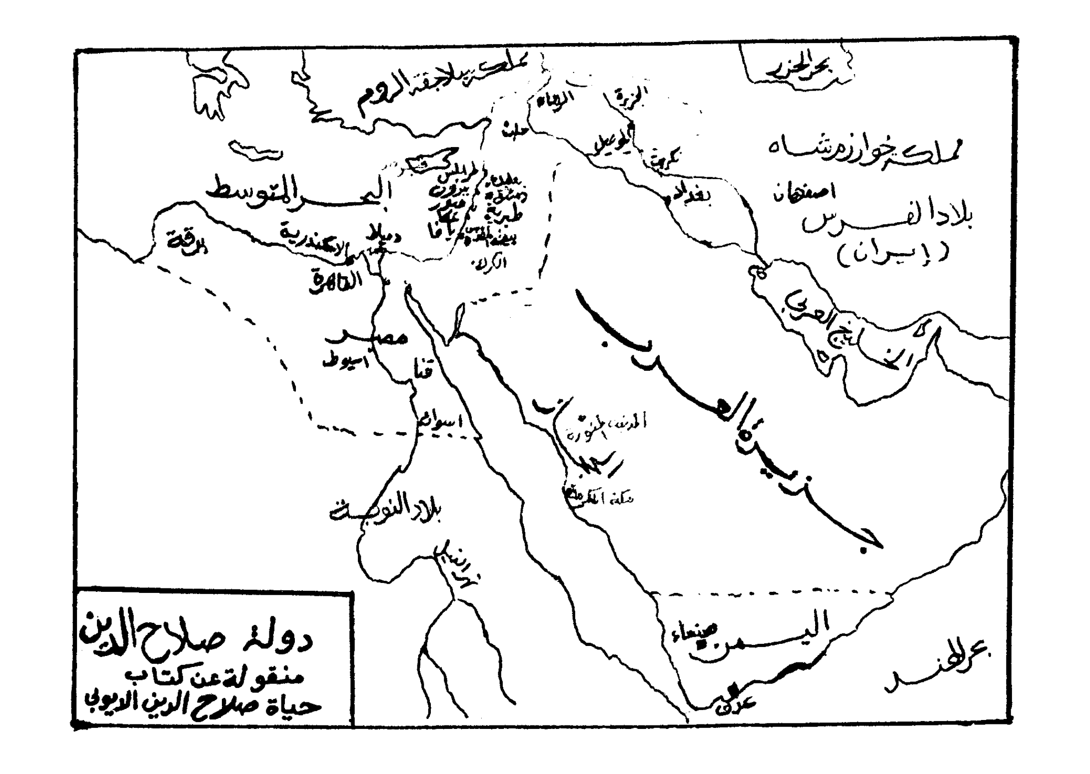
للإسكندرية ، ثم بعد ذلك كله جاء موت نور الدين محمود وموت (أملريك ملك بيت المقدس) الذي كان طامعاً في مصر ، لكي يزيد من نفوذ صلاح الدين في مصر ، كل ذلك ساعد صلاح الدين على أن يصبح سيد الموقف بل أصبح السيد المهاب في مصر والشام .. فبعد موت نور الدين محمود انقسمت دولته ، وحدثت صراعات وحروب بين أمراء الشام ، فبعد وفاة نور الدين محمود تولى بعده ابنه الملك الصالح إسماعيل ، وكان يبلغ من العمر الحادية عشرة ، فتولى تدبير ملكه ، شمس الدين بن المقدم ، واستطاع سيف الدين ابن عم الملك الصالح وصاحب الموصل الاستيلاء على ما كان لنور الدين محمود من بلاد في أرض الجزيرة في شمال العراق ، وأخذ بقية الأمراء يتنافسون فيما بينهم ، ويطمع كل منهم في الآخر ، لدرجة أن أمراء دمشق عندما خافوا على أنفسهم من الأمير سيف الدين صاحب الموصل والملك الصالح صاحب حلب ، فإنهم اتصلوا بصلاح الدين وطلبوا مساعدته ، فوجدها صلاح الدين فرصة لكي يقضي على حكم هؤلاء الضعفاء المنقسمين ، ويضم الشام إلى مصر ، ثم أخذ

يكاتب الخليفة العباسي في بغداد لكي يعترف به سلطاناً على مصر والشام ، حتى يستطيع محاصرة مملكة (بيت المقدس) في فلسطين ويستعيد المسجد الأقصى من أيدي الصليبيين ، وكان له ما أراد ، فقد وصل إلى دمشق في ربيع الأول عام ٥٧٠هـ - أكتوبر عام ١١٧٤م واستولى عليها ورتب شئونها ، وسلم قيادتها لأخيه (سيف الإسلام طغتكين) ، ثم ذهب منها إلى حمص وفتحها ثم إلى حماه ففتحها ، واتجه إلى حلب وحاصرها ، ثم تركها للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود مقابل الصلح عام ١١٧٥م ، وتركها وعاد إلى دمشق في مايو ١١٧٥م حيث وصلته هدايا الخليفة العباسي . وقرار توليته سلطاناً على مصر والشام – وهنا يجب أن نذكر أن راية صلاح الدين التي كانت ترفع على رأس جيشه في جميع حروبه ، كانت عبارة عن قطعة من الحرير الأصفر يتوسطها نسر أحمر ، يحملها حامل اللواء (الراية) في مقدمة الجيش – ثم رحل صلاح الدين من دمشق إلى مصر بعد أن غاب حوالي عامين ، وترك أخاه طوران شاه حاكماً على الشام ، وما لبث صلاح الدين أن وصل إلى مصر واستقر بها ، حتى قام الصليبيون الفرنجة بغزو

البلاد الواقعة شمال مدينة بيت المقدس ، وعلم صلاح الدين بما فعل الفرنجة فغزا جنوب فلسطين ، ووصل إلى الرملة وذلك عام ٥٧٣هـ ،و بعد أن أرهقه التعب عاد إلى مصر لكي يعد العدة ويستريح هو والجند بعض الوقت ، وبعد ثلاثة أشهر قاد صلاح الدين جيشه إلى الشام وأخذ يحارب الصليبيين الفرنجة ، وهاجم صيدا وبيروت ، والتقى الجمعان عند (مرج عيون) في وادي الأردن ، وأسر المسلمون الكثير من الصليبيين الفرنجة من بينهم (ريموند حاكم طرابلس بلبنان – وبلدوين حاكم الرملة – وحاكم طبرية) وذلك في (المحرم عام ٥٧٥هـ - يونيه ١١٧٩م) -- ثم حاصر صلاح الدين قلعة يعقوب واستولى عليها وهدمها ، فلم يجد الصليبيون مفراً من مهادنة صلاح الدين ، وبعد ذلك ازداد السلطان صلاح الدين قوة ورفعة ، فتقدم كثير من الأجناس لمحالفته ، وحدث تحالف كبير في (جمادى الأولى عام ٥٧٦هـ - أكتوبر ١١٨٠م) وقع عليه أمراء الجزيرة في شمال العراق وأمير الموصل ، وسلطان قونية ، وملك أرمينيا – وكانت مدة هذا التحالف وهذه المعاهدة سنتين – فانتشر بذلك اسم صلاح الدين

فيما بين البحر الأسود والخليج العربي شرقاً ، والبحر الأبيض المتوسط غرباً ، وكانت الهدنة فرصة لصلاح الدين لكي يزور فيها مصر ، ولكي ينظم أمورها ويشرف على ما يجري بها من أعمال ومنشآت ، مثل بناء الجسور وتحصين الإسكندرية ، وبناء المدارس ، وتمهيد الطرق ، وعند عودته إليها وجد أخاه طوران شاه الذي كان قد ولاه حكم الإسكندرية قد توفى (٥٧٦هـ - ١١٨٠م)

وعندما كان صلاح الدين بمصر يسير شئونها علم ان ريبولد (أرناط) أمير الكرك قد اعتدى على قافلة تجارية ونهبها وخالف شروط الهدنة ، وفي هذه الأثناء أيضاً ، علم بموت السلطان سيف الدين غازي حاكم الموصل ، وأن الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود قد مات أيضاً عن عمر يناهز التاسع عشر ، وذلك في (رجب ٥٧٧هـ - ديسمبر ١١٨١م) ، فأسرع صلاح الدين إلى الشام ليحمي ملكه ، ويحمي أتباعه ، ووصل إلى دمشق في (صفر ٥٧٨هـ - يونيه ١١٨٢م) ، وأخذ يخضع كثيراً من الأمراء المسلمين ويجعلهم تحت سلطانه ، كما فعل مع أمير حلب (عماد الدين) حيث دخل صلاح الدين حلب في (صفر ٥٧٩هـ - يونية



مملكة خوارزمشاه
بحر الخزر
بلاد الفرس
(إيران)
اصفهان
بغداد
الموصل
الرها
حلب
مملكة سلاجقة الروم
البحر المتوسط
الاسكندرية
برقة
القاهرة
مصر
أسيوط
قنا
اسوان
بلاد النوبة
جزيرة العرب
الحجاز
المدينة المنورة
مكة المكرمة
الخليج العربي
اليمن
صنعاء
عدن
دولة صلاح الدين
منقولة عن كتاب
حياة صلاح الدين الايوبي

١١٨٣م) ، وعند فتحه حلب مات أخوه (تاج الملوك بورى) الذي كان قد ولاه دمشق – وبذلك أصبح السلطان صلاح الدين الأيوبي ينشر سلطانه على البلاد من الرملة في الشام حتى حوض النيل في مصر ، وعلى سواحل أفريقية الشمالية حتى طرابلس في ليبيا ، وخضعت له بلاد اليمن وعدن ، إلا أن المدن الساحلية في الشام ومدينة بيت المقدس كانت لا تزال في أيدي الصليبيين الفرنجة ، مما جعله في عدم اطمئنان ، وكان يتحين الفرص لكي يستعيد هذه البلاد وخاصة بيت المقدس التي بها المسجد الأقصى (أولى القبلتين وثالث الحرمين) ، وما كانت حروبه ضد الأمراء المسلمين إلا لتوصيدهم تحت إمرته وسلطانه لكي يستطيع الوقوف في وجه هؤلاء الصليبيين الغاصبين ، وإخراجهم من بلاد المسلمين ، ومن مدينة القدس التي استولى عليها هؤلاء الصليبيون دون وجه حق ونشروا فيها الظلم ، وسفكوا دماء الأبرياء .



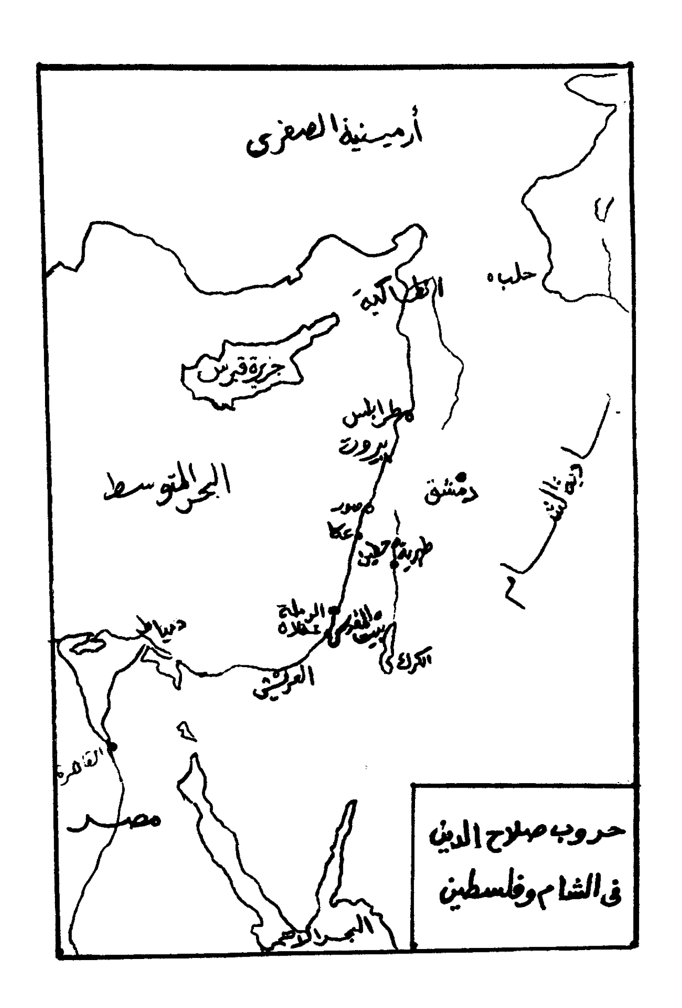
موقعة حطين واستعادة بيت المقدس
والمسجد الأقصى وتحقيق الحلم

عاد صلاح الدين من حلب إلى دمشق في (جمادى الأولى ٥٧٩هـ - أغسطس ١١٨٣م) ، وكان أمير الكرك قد غزا البلاد في شمال شبه الجزيرة العربية ، أثناء غياب صلاح الدين وكاد هذا الصليبي أن يدخل المدينة المنورة لولا يقظة الأمير لؤلؤ الذي تصدى له وهزمه شر هزيمة ، فكان من واجب السلطان لاح الدين أن يعاقب هذا الأمير الصليبي وبقية الصليبيين الفرنجة الذين لا يراعون هدنة ولا صلحاً ، فعبر نهر الأردن وأحرق بيسان وهزمهم ، وسار حتى مدينة الكرك وحاصرها ، ثم تركها ، ثم عاد وحاصرها مرة أخرى عام ٥٨٠هـ - ١١٨٤م ، واضطر الصليبيون الفرنجة إلى عقد صلح مرة أخرى لمدة أربع سنوات ، وعاد صلاح الدين إلى دمشق عام (٥٨٢هـ - ١١٨٨م) بعد أن أصبح حاكم الموصل مواليا له ويحكم باسمه ، وبذلك جمع صلاح الدين كلمة المسلمين في شمال العراق والشام ومصر وشمال أفريقية واليمن وعدن ، وأصبح

مستعد لملاقاة الصليبيين الفرنجة في مدينة بيت المقدس وما حولها في فلسطين .

كانت أحوال الصليبيين الفرنجة في ذلك الوقت قد حدث فيها صراعات عديدة مما أدى إلى بعض الانقسام بينهم ، وقد حدث أن خرق (أرناط) حاكم الكرك الهدنة بمهاجمته لقافلة من قوافل المسلمين وذلك في عام (٥٨٢هـ - ١١٨٦م) ويقال أن أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي كانت بالقافلة ، وقد قتل (أرناط) كثيراً من الرجال والنساء ونهب الأموال والأمتعة ، وسب الرسول عليه الصلاة والسلام .. فعلم السلطان صلاح الدين بذلك ، فأقسم إن ظفر به (أي بأرناط) لا بد أن يقتله ، لأنه سب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولأنه قتل الرجال والنساء العزل من السلاح .. وقد حدث فعلاً في موقعة حطين ، بعد انتصار صلاح الدين على الصليبيين ، حيث أسره صلاح الدين وقتله بيده ، وذلك ما سوف نوضحه فيما يلي ، حيث عقد السلطان صلاح الدين مجلس الشورى فقرر المجلس وجوب منازلة العدو ومحاربته ، فأخذ صلاح الدين يستعرض جيشه ويطمئن على

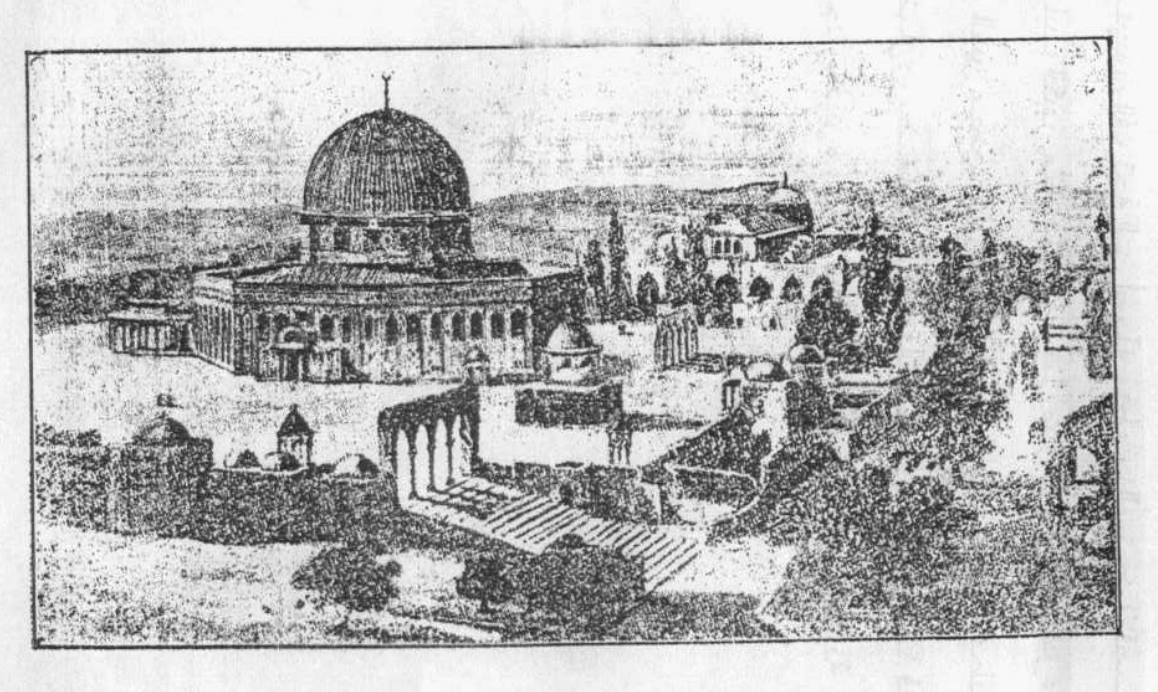
استعداده وقوة تنظيمه وتسليحه وذلك يوم الخميس (١٦ ربيع الآخر ٥٨٣هـ - ٢٥ يونيه ١١٨٧م) بالقرب من بحيرة طبرية ، وظل معسكراً حتى يوم الجمعة وصلى الجمعة بالجيش ، ودعا القادة والعسكر جميعاً المولى سبحانه وتعالى أن ينصرهم على عدوهم .. وعبر صلاح الدين بالجيش يوم السبت نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية ، وأرسل عيونه لمعرفة موقع العدو الذي تجمع في صفورية ليرد هجوم المسلمين ، ثم تقدم صلاح الدين برجاله إلى (تل كفر سبت) على بعد عدة أميال من جنوب غرب طبرية ، وترك جزءاً من جيشه وتحرك هو والباقي إلى طبرية نفسها ، وبعد معركة قصيرة استولى على طبرية .. وعندما تحرك جيش الفرنجة الصليبيين ، عاد صلاح الدين إلى جيشه الأصلي وأخذ يعد العدة للموقعة القادمة ، وفي صباح يوم (٢٥ ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ - ٣ يوليه ١١٨٧م) تحرك جيش الصليبيين ليخلص طبرية من أيدي المسلمين ، ولم يدروا أن جيش صلاح الدين كان قد أحرص المدينة بعد أن أخلى السكان منها لكي لا يتحصن بها جيش الصليبيين عند عودته إليها .. وقد قطع جيش المسلمين على جيش


أرمينية الصغرى
حلب
انطاكية
جزيرة قبرص
طرابلس
بيروت
البحر المتوسط
دمشق
صور
عكا
طبرية
حطين
الرملة
عسقلان
بيت المقدس
الكرك
العريش
دمياط
القاهرة
مصر
حروب صلاح الدين
فى الشام وفلسطين

الصليبيين الطرق المؤدية إلى مصادر المياه ، وكانت أشعة الشمس حارقة ، وبلغ الظمأ مبلغه بجيشهم .. وفي صباح اليوم التالي (٢٦ ربيع الثاني ٥٨٣هـ - ٤ يوليه ١١٨٧م) هجم جيش المسلمين على جيش الصليبيين الفرنجة ، فغرق ركبانهم ومشاتهم ، وتقهقرت فلولهم إلى تلال حطين ، والتفوا حول خيمة ملكهم التي ما لبثت أن تداعت أركانها ، وكانت هزيمة الصليبيين الفرنجة على أيدي المسلمين بقيادة صلاح الدين ، هزيمة منكرة ، وكان يوم (٢٦ ربيع الثاني عام ٥٨٣هـ - ٤ يوليه ١١٨٧م) يوم مشئوم على الصليبيين الفرنجة في الشام ويوم نصر وفرح للمسلمين ، وقد أسر جيش المسلمين ملك بيت المقدس وأخيه وأسروا (أرناط) حاكم الكرك ، في حين أقيم للسلطان صلاح الدين الأيوبي خيمة كبيرة ، اجتمع فيها بذوي الرأي من أتباعه ، وسجد الجميع لله شكراً على هذا النصر المبين من عنده سبحانه وتعالى ، ثم أمر بإحضار الأسرى ، فأحضروا له الملك وأحضروا (أرناط) ، فأمر صلاح الدين بالماء المثلج للملك ، فشربه الملك إلا قليلاً منه أعطاه لأرناط حاكم الكرك ، فقال

السلطان صلاح الدين حينئذ " إنا لم نعطه (أي أرناط) هذا الماء ، حتى يكون أمناً منا على نفسه " .. ثم قام وأنب حاكم الكرك (أرناط) على سوء صنيعه مع قافلة المسلمين ، وتطاوله على مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وضرب عنقه بالسيف ، تنفيذاً لوعده الذي أخذه على نفسه ، وبرا بقسمه الذي أقسمه قبل ذلك - أما ملك بيت المقدس ، فقد طيب السلطان صلاح الدين خاطره ، وأرسله وبقية قومه إلى دمشق معززا مكرما (ولكن كأسير) ، وعاد صلاح الدين في اليوم التالي إلى طبرية ودخلها وأصلح ما بها ، ثم تقدم منها ليفتح جهات كثيرة في فلسطين دون أي مقاومة تذكر ، وانحاز إليه كثير من المسلمين ومن الفرنجة ممكن كانوا في هذه البلاد ، بسبب ما لاقوه من ظلم على أيدي حكامهم الصليبيين الفرنجة ، ثم استولى على عكا والناصرية وحيفا وصفورية ونابلس وصيدا وبيروت ، وفتح عسقلان ، واستولى على الرملة وغزة والخليل وبيت لحم ، وأصبح ليس أمامه إلا بيت المقدس ، واستولى على ذلك كله في مدة شهرين من انتصاره في حطين ، وأصبح بعد ذلك طريق مدينة القدس مفتوحاً أمامه ، ولم يكن يريد أن يحاصرها أو

يتعرض لها بسوء نظراً لقدسية المدينة ، وكان يريد أن يدخلها صلحاً ، إلا أن الفرنجة أبوا ذلك ، فاضطر السلطان صلاح الدين إلى التوجه بجيشه نحوها ، وصمم على الاستيلاء عليها وحاصرها فترة طويلة ، حصاراً شديداً ، ويأس المدافعون عن المدينة ، فاختاروا (يليان) ليطلب الصلح من صلاح الدين ، وحدث الصلح ، وسمح السلطان لهم بالخروج من المدينة بأموالهم وأمتعتهم في مدة أربعين يوماً ، وكان أول يوم بدأوا فيه الخروج هو يوم الجمعة (٢٧ رجب عام ٥٨٣هـ - ٢ أكتوبر ١١٨٧م) يوم الإسراء والمعراج ، وصدقت نبوءة محيي الدين قاضي حلب ، وقد أحضره السلطان صلاح الدين ليكون خطيب مدينة القدس في المسجد الأقصى ، بعد أن انقطعت فيه الصلاة منذ أن احتل الصليبيون المدينة (عام ١٠٩٩م) أي من نحو ٩٠ عاماً .. ومكث صلاح الدين خارج المدينة ، لم يدخلها إلا بعد أن غادرها علية القوم من الفرنجة ، ودخلها بعد ذلك وحوله الأمراء والكبراء يحيطون به ويقدمون له التهاني .. ومكث السلطان صلاح الدين ينظم أمور المدينة ، فأمر ببناء ما تهدم منها ، وإعادة كل ما غيره



مدينة بيت المقدس الاسلامية

الصليبيون الفرنجة إلى أصله ، فطهر المسجد الأقصى وأزال الصليب الكبير منه ، ثم أمر بعمل منبر للمسجد ، فأخبره القادة أن نور الدين محمود كان قد أوصى بعمل منبر لا يزال بحلب ، فأمر بإحضاره ووضعه في مكانه بالمسجد الأقصى ، وأخذ في غسل المسجد وتطهيره ، وأمر ببناء المدارس والمساجد بالمدينة .

* * *

الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الأسد

وانتصار صلاح الدين عليها

عندما استعاد صلاح الدين الأيوبي مدينة بيت المقدس ، ثارت ثائرة الفرنجة في أوربا وقاموا يدعون إلى قيام حملة صليبية جديدة لاسترداد مدينة بيت القدس من أيدي المسلمين ، وفي ذلك الوقت حاصرت بقايا الصليبيين الفرنجة في الشام مدينة عكا وذلك أول عام (٥٨٦هـ - ١١٩٠م) وكذلك حاصر المسلمون الفرنجة الذين كانوا يحاصرون عكا .. وعلم السلطان صلاح الدين بمقدم الإمبراطور الألماني فريدريك الأول (المعروف بفريدريك بابروسا) لتعضيد قوات الصليبيين ، ولكنه غرق في أحد الأنهار قبل مقدمه ، فتشتت جيشه ، ثم وصل بعده الكونت هنري ، ثم وصل بعده ملك فرنسا (فيليب أغسطس) في عدد كبير من الجند وذلك في (١٣ ربيع الأول عام ٥٨٧هـ - ١٩ أبريل ١١٩١م) ، ثم تبعه ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا يقود أسطولاً قوياً ، استولى به على جزيرة قبرص في البحر المتوسط ، ثم اتجه إلى عكا وساعد الصليبيين الذين كانوا يحاصرونها ، واستطاع

الاستيلاء عليها في (١٧ جمادى الثانية عام ٥٨٧هـ - ١٢ يوليه ١١٩١م) – وقد قام ريتشارد بقتل نحو (٢٧٠٠ من المسلمين) في حين أن المسلمين عندما استعادوا مدينة عكا قبل مجيئه ، لم يقتلوا أحداً من الصليبيين .. وقد سارت الحرب سجالاً بين الطرفين ، ولكن صلاح الدين عرف بخبرته السياسية والعسكرية أن جيش الفرنجة الذي يتكون من عناصر مختلفة في اللغات واللهجات والأغراض والمطامع ، لا يمكن أن يصمد طويلاً ، بل لا بد أن يقع الخلاف بين هذه العناصر ..

وأخذ صلاح الدين يتحين الفرص الملائمة ، وما هي إلا أشهر قليلة حتى دب الخلاف بين ريتشارد ملك إنجلترا وفيليب ملك فرنسا على قيادة الجيش والحملة ، بل حدث صراع أيضاً بين (جوي) ملك بيت المقدس السابق ، وكونراد قائد الجيش الصليبي في مدينة صور ، على من سيكون ملك بيت المقدس بعد استعادتها من المسلمين ، وانحاز كونراد إلى فيليب ملك فرنسا ، وانحاز (جوي) إلى ريتشارد ملك إنجلترا ، مما أدى في النهاية إلى رحيل ملك فرنسا ، إلى بلاده في (٧ رجب عام ٥٨٧هـ - ٣١ يوليه ١١٩١م) وترك

جزءاً كبيراً من جيشه تحت قيادة كونراد ، ورغم ذلك الخلاف إلا أن ريتشارد أراد أن يسترد بيت المقدس ، فتحرك بجيشه من عكا في (٢١ رجب ٥٨٧هـ - ٢٢ أغسطس ١١٩١م) بحذاء الشاطئ تحميه السفن من نيران جيش المسلمين ، ولاقى الصليبيون كثيراً من المتاعب ، ووصلوا مدينة يافا في ١٨ شعبان – ١٠ سبتمبر من نفس العام .. وبعد مشقة استطاعوا الاستيلاء عليها ، وأخذ ريتشارد في تحصينها ، وبناء المعاقل والحصون في الصحراء ، ولكن المسلمين لم يتركوا لهم فرصة لذلك ، وكانوا دائمي الإغارة عليهم ، مما أدى إلى انخفاض الروح المعنوية بين جند الصليبيين ، وبان لهم أنهم لن يستطيعوا مواصلة التقدم لبيت المقدس ، وفعلاً بدأ ريتشارد في مفاوضات الصلح بينه وبين المسلمين من أواخر شهر رمضان (منتصف أكتوبر) من نفس العام ، وذلك لأنه رأى صعوبة كبيرة في الوصول إلى مدينة بيت المقدس ، ولأنه رغب في العودة إلى إنجلترا نظراً للظروف الداخلية التي حدثت بها ، وانقسام القادة الفرنجة الذين معه على أنفسهم ، بالإضافة إلى ما عاناه الجيش الصليبي من صعوبات في سيره من عكا إلى يافا ،

فدارت المحادثات بينه وبين الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ومن شروط هذا الصلح الذي عرضه ريتشارد على الملك العادل ، أن يتزوج العادل بأخت الملك ريتشارد ، وأن يتنازل السلطان صلاح الدين لأخيه العادل عن البلاد التي استردها على الشاطئ من الصليبيين ، كما يتنازل ريتشارد عن البلاد التي استولى عليها وذلك كصداق لأخته ، وأن تكون مدينة القدس ملكاً للزوج والزوج (العادل وأخت الملك ريتشارد) بصفتهما محايدين ، ويفتحان أبوابها للمسلمين والفرنجة على السواء ، وأن يتبادل الطرفان الأسرى .. وعرضت هذه الشروط على السلطان صلاح الدين ، فوافق عليها محبة للسلام ، ورغبة منه في حقن الدماء .. لكن رجال الدين من القساوسة وغيرهم من الفرنجة رفضوا ذلك ، وقالوا كيف تتزوج أميرة مسيحية بأمير مسلم ، ولم تتم المعاهدة ، واستمرت الحرب .

فقام صلاح الدين بإخراج أهل عسقلان منها وتخريبها ، حتى لا يستفيد منها الصليبيون الفرنجة ، لأنها الطريق إلى بيت المقدس ، بل إنه أخذ في تخريب وإخلاء أي مكان يرى فيه قوة لجيش

الفرنجة إذا استولوا عليه في الطريق إلى بيت المقدس .. واتجه صلاح الدين إلى بيت المقدس ليصلح أسوارها ، ويحفر خندقاً حولها لحمايتها ، وقام الفرنجة بقيادة ريتشارد بالسير نحو بيت المقدس ، لكنهم لاقوا في الطريق متاعب كثيرة ، من أمطار وأوحال ، وكان المسلمون يغررون بهم ويخدعونهم ، ويجعلونهم يسيرون في طرق متفرقة حتى أخذ منهم التعب مأخذاً ، بل إن جند الفرنجة أخذوا في التفرق والتشتت ، فذهب عدد كبير من الفرنسيين إلى يافا ، وغيرهم رحلوا إلى عكا ، ولم يبق مع ريتشارد إلا عدد قليل دب في قلوبهم اليأس ، وأضناهم التعب ، وهذا بالإضافة إلى قيام حرب بين الفرنسيين والآخرين من الفرنجة في عكا ، وحدوث النزاع بين ريتشارد ملك إنجلترا وكونراد قائد الفرنسيين إلى درجة كبيرة ، بالإضافة إلى وصول أخبار من إنجلترا للملك ريتشارد تفيد قيام ثورات في إنجلترا ، وأن أخاه أخذ يطمع في حكم البلاد .. كل هذه الأسباب جعلت ريتشارد يجمع قادة الجيش ليختاروا ملكاً وقائداً من بعده ، فاختاروا كونراد ، ثم ما لبث أن اغتيل كونراد على يد الفرنجة

من أتباع ريتشارد ، والذي يدل على ذلك أن ريتشارد توج هنري (ابن أخته) ملكاً على مدينة القدس بدلاً من كونراد (على أساس ما سيكون عند استطاعتهم الاستيلاء على القدس) ، وكذلك زواج هنري هذا من زوجة كونراد ليلة مقتله ، ورغم كل هذه الخلافات ، إلا أن مجموعة من الجنود وخاصة من الفرنسيين كانوا مصرين على حصار مدينة القدس والاستيلاء عليها ، ولكن نظراً لتواجد جيش المسلمين ، وتحصين المسلمين لمدينة القدس ، وللظروف التي أصابت جيش الصليبيين الفرنجة ، ورغبة ريتشارد في العودة لبلاد إنجلترا ، لذلك بدأ الصليبيون في التوجه إلى مدينة عكا ، وبدأ ريتشارد يرسل إلى صلاح الدين يطلب منه الصلح ، وأرسل إلى العادل أخو صلاح الدين لكي يتوسط بينه وبين أخيه صلاح الدين في عقد الصلح ، وتم الصلح الذي يسمى (صلح الرملة) في (٢٢ شعبان عام ٥٨٨هـ - ٢ سبتمبر ١١٩٢م) وينص على ما يلي :- أن تكون بلاد الشاطئ من صور إلى عكا بيد الفرنجة ، وأن تظل عسقلان مخربة ، وأن يسير الفرنجة والمسلمون في أملاك بعضهما آمنين ، ولحجاج الفرنجة زيارة (القدس) ، وأن يظل السلام بين

المسلمين والفرنجة ثلاث سنوات وبضعة شهور ، وقد وقعها ريتشارد ويده ترتجفان من شدة الحمى ، ثم غادر يافا إلى عكا ثم سافر من عكا إلى إنجلترا في أول شوال العاشر من أكتوبر من نفس العام .

وجاءت هذه المعاهدة بعد حرب ظلت خمسة أعوام ، ضاعت فيها أرواح كثيرة من المسلمين والفرنجة ، ومات أثناءها فريدريك إمبراطور ألمانيا ، وأضاعت إنجلترا وفرنسا نخبة كبيرة من زهرة شبابها وفرسانها ، دون أن ينال الفرنجة سوى مدينة عكا .

وقامت هذه الحرب ولم يكن للمسلمين إلا ممتلكات قليلة في فلسطين ، أما بعد صلح الرملة فقد أصبحت فلسطين كلها ملكاً للمسلمين ، ما عدا ذلك الجزء الضيق من صور إلى عكا على ساحل البحر المتوسط ، وصار صلاح الدين أقوى مما كان ، وانتهت بذلك الحملة الصليبية الثالثة بالفشل الذريع .

* * *

صفات صلاح الدين وشجاعته
والمؤامرات التي تعرض لها

لقد جعل الله سبحانه وتعالى بقدرته وعظمته رجلا من المسلمين منقذاً للمشرق العربي والإسلامي من خطر داهم وهو الخطر الاستعماري الصليبي الفرنجي القادم من أوربا ، طامعا في هذه البلاد مستغلا حالة الضعف والتفكك التي انتابتها بسبب الأطماع والصراعات بين حكامها هذا الرجل هو صلاح الدين الأيوبي الذي علي يديه انتهي الخطر الصليبي الفرنجي الذي كان موجود في الشام وفلسطين وخاصة بعد أن هزم قواتهم في معركة حطين واستعاد مدنية بيت المقدس من أيديهم وعلي يديه انهزمت الحملة الصليبين بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وانعقاد صلح الرملة (كما ذكرنا فيما سبق) والذي بمقتضاه انتهي التواجد الصليبي في الشام وفلسطين فيما عدا شريط ضيق علي ساحل البحر المتوسط من صور إلي عكا .

ولقد خاض صلاح الدين في سبيل ذلك حروبا عديدة حروبا من أجل توحيد كلمة أمراء الشام وشمال العراق وجعلهم خاضعين

لحكمة ثم كون دولته التي تحدثنا عنها سابقاً .... من مصر والشام وشمال العراق وفلسطين واليمن وطرابلس في ليبيا وخاض حروباً ضد الصليبين الفرنجة ليقضي علي إمارتهم في الشام وفلسطين وقد استطاع أن يحقق ذلك كله ببراعة وشجاعة فائقة لاشك أن صفات صلاح الدين الأيوبي التي اتصف بعضا هي التي أهلته للقيادة وللحكم فقد كانت شجاعته وفروسيته التي تعلمها علي يد أبيه نجم الدين أيوب وعلي يد عمه أسد الدين شيركوه وكذلك تربيته الدينية التي جعلته يترب علي الخلق الكريم فكان بجانب شجاعته وإقدامه عطوفا علي الفقراء محبا لأسرته وعائلته وكان كريما مع الأعداء كما كان مع الأصدقاء ورغم قوته وانتصاراته المتعددة إلا أنه كان متواضعا كما أن صلاح الدين تربي في أسرة تجيد القتال والنزال وتجيد الفروسية وركوب الخيل كان أبوه قائدا لجيش دمشق وكان عمه شيركوه قائدا لجيش حلب ولما استطاع نور الدين محمود ضم دمشق لحلب جعل من نجم الدين أيوب أميرا لجيوشه في هذا الجو العسكري تربي صلاح الدين ونظر لما كان يتمتع به من أخلاق طيبة وطباع هادئة وعقل متزن فقد

اختاره نور الدين محمود من جلسائه في مجلسه مع الأمراء والقادة وكثيرا ما كان يأخذ برأيه ومشورته في الأمور الهامة وهو الشاب الذي لم يتعد العشرين عاما كانت صفات الزعامة وعلاماتها واضحة عليه منذ صغره ولذلك عندما أرسل نور الدين محمود قائدة أسد الدين شيركوه علي رأس الحملات التي أرسلها إلي مصر طلب شيركوه من نور الدين محمود أن يكون معه في هذه الحملات ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ولم يوافق نور الدين محمود بسهوله علي هذا الطلب وهذا دليل قاطع علي أن نور الدين محمود كان يحتاج لمشورة صلاح الدين ورأيه في مجالس حكمه لكنه رضخ لطلب أسد الدين شيركوه وإلحاحه لأنه يعلم مدي شجاعة صلاح الدين الأيوبي أنه سوف يساعد عمه شيركوه في هذه الحملات علي مصر وعندما انتصرا جيش نور الدين بقياده شيركوه وصلاح الدين وقضي علي صراع كل من ضرغام وشاور علي الوزارة وعلي تدخل الصليبين في مصر وبعد مقتل كل من شاور وضرغام عين الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله أسد الدين شيركوه وزيرا له وعندما توفي شيركوه بعد شهرين من تعيينه في الوزارة اختار

الخليفة العاضد صلاح الدين الأيوبي وزيرا له خلفا لعمه شيركوه وذلك لما اتصف به صلاح الدين من أمانة في التعامل وشجاعة في الحرب والقتال وصمود في وجه الصليبين وإجبارهم علي الخروج من مصر مهزومين بالإضافة إلي حب المصرين له .

أصبح صلاح الدين وزيرا الخليفة العاضد رغم طمع كثير من الأفراد والقادة في هذا المنصب الهام والخطير حيث كان الوزير في ذلك الوقت هو كل شي في الدولة بيده مقاليد الأمور كلها وكذلك اختيار الخليفة العاضد الفاطمي صلاح الدين لتولي الوزارة لثقته التامة فيه ولصفاته التي ذكرناها والمهم الذي يجب أن يعرفه الشباب أن صلاح الدين تولي الوزارة ذلك المنصب الهام والخطير وكان يبلغ من العمر ٢٢ عاما أي أنه كان شابا في مقتبل العمر لكنه نظرا لما يتمتع به من صفات طيبة سواء كانت في النواحي الحربية أو السياسية أو الاجتماعية من حسن الخليفة وتدينه وحسن معاملته للآخرين .

ورغم ذلك كله ورغم ما تمتع به من صفات طيبة إلا أنه لم يسلم من المؤامرات التي كادت تؤدي بحياته لولا شجاعته وحسن تدبيره وحب من حوله وعناية الله سبحانه وتعالي له لكي تتحقق علي يديه هزيمة الصليبين الفرنجة وطردهم من بلاد المسلمين في الشام وفلسطين تلك البلاد التي استولوا عليها عنوة في غفلة من حكام هذه البلاد .

ومن المؤامرات التي تعرض لها صلاح الدين :

١- مؤامرة مؤتمن الخلافة :

كتب مؤتمن الخلافة (وهي وظيفة تجعل صاحبها قريبا جدا من الخليفة الفاطمي كأمين سر) كتابا ووضعه داخل نعل جديد (أي حذاء جديد) وأعطاه لرجل من أتباعه ليسلمه للصليبين الفرنجة في الشام وكان يدعو فيها الفرنجة لغزو مصر حتى إذا خرج صلاح الدين لملاقاتهم يقوم هو وأتباعه من السودان من خلف صلاح الدين ليقضوا عليه .... ولكن النعل وقع في يد أحد أتباع صلاح الدين وأوصلها إليه ولكنه لم ينتقم من مؤتمن الخلافة الخائن في وقتها خوفا من أن يثور الناس لقتله وإنما أمهله حتى خرج ذلك الخائن إلي

قصر له خارج القاهرة فأرسل صلاح الدين إليه من قتله وثار السودان التابعين له وكان عددهم نحو خمسين ألف ، فقام شمس الدولة طوران شاه أخو صلاح الدين بمحاربتهم وهزمهم وهربوا إلي أسوان جنوب مصر ثم من بعدة تتبعهم أخوه العادل حتى قضى عليهم نهائيا عام ١١٧٦م .

٢- مؤامرة الملك الصليبي أملريك (أموري) ملك بيت المقدس:

أراد أملريك الاستيلاء علي دمياط ليستطع منها أن يغزو مصر فأرسل يطلب المساعدة من الإغريق في اليونان ولكن الملك أملريك لم ينتظر مجيء الإغريق ، وغزا دمياط ، ولكن صلاح الدين وجيشه ومعه المصريون أهل دمياط ، استطاعوا صد هذا الغزو ، وهزموا الصليبيين شر هزيمة ، ولما وصل الإغريق اليونانيون بسفنهم ، لاقوا الأهوال من المقاومة ، ومن الظروف المناخية من عواصف وسقوط أمطار أغرقت أكثر سفنهم ، وعادوا مهزومين إلى بلادهم .

٣- مؤامرة عمارة اليمني :

أراد عمارة اليمني الذي كان يقيم بمصر آنذاك هو وجماعته من الشيعة المتطرفين أن يخرج على صلاح الدين ويثور ضده ، وانضم إليه هو وجماعته بعض من جند صلاح الدين ، واتفقوا على مكاتبة الصليبيين الفرنجة في الشام وفي صقلية لغزو مصر ، وفي نفس الوقت أخذ يقنع طوران شاه أخو صلاح الدين ليغزو اليمن ، حتى إذا خرج طوران شاه لغزو اليمن ، يأتي الفرنجة من الشام ، وعندما يقوم صلاح الدين بمحاربتهم ، في هذا الوقت يقوم عمارة اليمني وأتباعه الشيعة بمهاجمة صلاح الدين والقضاء عليه .. ورغم أن طوران شاه اتجه فعلاً لغزو اليمن ، واستطاع دخولها والقضاء على المذهب الشيعي بها ، وجعلها تعود للمذهب السني مرة أخرى ، وأصبحت الخطبة على منابرها للخليفة العباسي السني في بغداد .. إلا أن صلاح الدين استطاع أن يكتشف المؤامرة قبل أن تتم ، وألقى القبض على رؤوس المؤامرة ، وأمر بصلبهم جميعاً وأولهم عمارة اليمني .

٤- مؤامرة كمشتكين وزير الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود (حاكم حلب) :

رأى كمشتكين أن صلاح الدين قد علا شانه وزادت قوته فراسل جماعة من الشيعة الباطنية (وهم الإسماعيلية) فأرسل إلي زعيمهم شيخ الجبل راشد الدين سنان (وهو رئيس الطائفة الإسماعيلية في قلاع الشام) أرسل إليه يطلب المساعدة منه، فأرسل إليه جماعة لكي تغتال صلاح الدين ، حيث طلب هؤلاء المثول بين يدي صلاح الدين ، فسمح لهم بالدخول ولكن حرس صلاح الدين كشفوا أمرهم فقتلوا قائدهم وفر الباقي فتتبعهم جماعة من الحرس وقتلوهم .

٥- أحد الخوارج يحاول قتل صلاح الدين :

يبدو أن هذه المؤامرة امتداد للمؤامرة السابقة فقد استطاع كمشتكين أن يستميل بعض الخوارج من طائفة الحشاشين وهم من الخوارج الذين يتقنون الاغتيالات فاستطاع بعضهم أن يندسوا في وسط جنود صلاح الدين وبينما كان صلاح الدين يحاصر قلعة إعزاز (وهي علي بعد ١٥ ميلا من مدينة حلب) انقض علية أحد

هؤلاء الخوارج وضربه علي رأسه لولا خوذته الحديدية لكانت الضربة قضت عليه ولكن جنود صلاح الدين قبضوا علي هذا الخارجي وقتلوه وما لبث أن قام خارجي آخر يريد قتل صلاح الدين ولكنه يقتل أيضا وخارجي آخر يحاول ثم يقتل هو الآخر وكانت مؤامرة دنيئة سلمه الله سبحانه وتعالي منها وقد شدد صلاح الدين الحصار علي حلب (بسبب هذه المؤامرة) ... ثم حدث الصلح بين صلاح الدين والملك الصالح إسماعيل ولكن بعد أن استولي صلاح الدين علي دمشق وحمص وحماه .

• • •

أهم أعمال صلاح الدين ومنشآته

إن أعمال صلاح الدين الحربية العظيمة وهي التي اشتهر بها في التاريخ وهي التي خلدت اسمه بين القادة والحكام ولعل من أهم هذه الأعمال والحروب التي خاضها ضد الصليبين الفرنجة في الشام وفلسطين والتي انتصر فيها انتصارا كبيرا علي قادة وملوك أوروبا وأمراء الصليبين في الشام وفلسطين ومن أهم المواقع التي انتصر فيها كما قدمنا موقعة حطين التي انتصر فيها علي أمير الكرك وعلي ملك بيت المقدس وأسر كثيرا من جند وقاده الصليبين ومن بينهم (أرناط) أمير الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده بارا بقسمه إن ظفر به وذلك بسبب قتله العزل من حجاج المسلمين وسبه لرسول الله صلي الله عليه وسلم وكذلك أسر ملك بيت المقدس ولكنه عاملة معاملة حسنه ، وكان من نتائج هذه الموقعة استعادة المسلمين لمدينة بيت المقدس ، وتطهيرها من الاستعمار الصليبي الفرنجي ، وكذلك ضمه لكثير من مدن الشام وفلسطين لدولته ، واصبح الوجود الصليبي في الشام وفلسطين يكاد يكون معدوما ، لولا قيام أوربا بالحملة الصليبية الثالثة التي

ترأسها ثلاثة من ملوك أوربا ، هم ملك ألمانيا فريدريك باربروسا الذي مات غرقا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا .... وقد واجه صلاح الدين هذه الحملة بشجاعة منقطعة النظير حيث أجبرهم علي الرجوع إلي بلادهم مهزومين بعد عقد صلح الرملة كما سبق أن ذكرنا وذلك في عام(٥٨٨- ١١٩٢م) وكان من أسباب نصره علي الصليبين استطاعته توحيد كلمة المسلمين في الشام وفلسطين ومصر تحت قيادته بعد أن ضرب علي أيدي الطامعين والعاصين من أمراء المسلمين مما أدي به بعد ذلك من تكوين دولة كبري تحت حكمه تمتد من الكردستان شمال العراق حتى بلاد تونس في شمال أفريقيا وكذلك أخضع بلاد اليمن وضمها لهذه الدولة .

ورغم أن أكثر وأشهر الأعمال التي قام بها صلاح الدين أعمالاً حربيه لاستعادة هيبة البلاد الإسلامية واسترداد ما سلبه الصليبيون من البلاد العربية وتكوينه لدولة عربية قوية يعمل لها العالم في ذلك الوقت ألف حساب ..... إلا أن صلاح الدين قام أيضا بأعمال مدنية عظيمة فقد قام ببناء السور الكبير حول القاهرة ليحميها من أعدائها

وقد بني هذا السور حول العواصم الإسلامية لمصر أي حول مدينة الفسطاط التي بناها عمر ابن العاصي وجعلها عاصمة للديار المصرية في عهد الخلفاء الراشدين وفي عهد الأمويين وحول مدينة العسكر التي بناها العباسون واتخذوها عاصمة لمصر في عهدهم وحول مدينة القطائع التي بناها أحمد ابن طالون ، وظلت عاصمة لمصر إلي أن جاء الفاطميون وبنوا مدينة القاهرة المعزية ، على أيام المعز لدين الله الخليفة الفاطمي ، وظلت القاهرة الفاطمية عاصمة لمصر حتى جاء صلاح الدين الأيوبي وجعل من هذه العواصم جميعا عاصمة واحدة وهي القاهرة الأيوبية والتي يمكن أن نطلق عليها قاهرة صلاح الدين وبني حولها سور كبيرا لكي يحمي هذه العاصمة الجديدة من أي غزو أجنبي وجعل لهذا السور أبوابا ضخمة تفتح وتقفل عند اللزوم ولا تزال آثار هذا السور موجودة إلي الآن وكذلك بعض أبواب هذا السور ، مثل باب زويله ، وباب النصر ، وباب الفتوح وغيره ...

ومن أعماله المدنية الهامة أيضا ، بناء قلعة عظيمة لحماية عاصمة مصر الجديدة عاصمة صلاح الدين الأيوبي ، واتخذ في داخل هذه القلعة سكنا له ، ومكانا لدواوين الحكومة ، وتعتبر القلعة في نفس الوقت ملجأ له ولأسرته إذا ما ثار ضده الطامعون من بقايا الفاطميين ، أو إذا فكر نور الدين محمود في محاربته وضم مصر إلي ملكه ، وهذه القلعة لا تزال موجودة إلي الآن ، وتسمى قلعة صلاح الدين ، وقد بناها صلاح الدين في الشهور الأولي لحكمة في مصر ، بل إنه بالإضافة إلي ذلك ، أعد جيشا قويا من المصرين ، وجمع حوله قومه وأهله ، وجعلهم مستشارين له ، ومعاونين له في الحكم .

ومن أهم المنشآت المدنية التي أنشأها أيضا ، المدرسة الناصرية التي بناها (عام ٥٦٦هـ - ١١٧٠م) بجوار جامع عمر ابن العاصي ، وجعلها لتدريس المذهب الشافعي السني ، وهي أول مدرسة أسست في مصر ، وبني أيضا المدرسة القمحية بالقرب منها ، وجعلها لتدريس المذهب المالكي السني ، وبني مدرسة لتدريس المذهب الحنفي السني (عام ٥٧٢هـ - ١١٧٦م) ورتب لهذه المدارس

المدرسين والطلبة ، ورتب لهم الرواتب والنفقات ، وتمكن بذلك من نشر المذهب السني بين المصريين بدلا من المذهب الشيعي ... وكذلك أمر ببناء الخوانق (وهي أسواق وأماكن لسكن التجار) وأهمها الخانقاه الصلاحية ... وقد قام بالإشراف علي هذه المنشآت ، وزير صلاح الدين وكاتبه (بهاء الدين قراقوش) ، فهو الذي أشرف علي بناء سور القاهرة والقلعة ، وبناء المدارس والخوانق .

وكذلك اهتم صلاح الدين ببناء أسطول حربي كبير ، وجعل له ديوانا يسمي (ديوان الأسطول) ، وقد رأس هذا الديوان أخوه العادل .... وكانت الإسكندرية ودمياط من الموانئ البحرية الهامة ، وكانت الفسطاط وقوص من اعظم الموانى النيلية ، وكانت السفن الحربية تصنع في هذين الميناءين ، واهتم صلاح الدين بالإسكندرية ،لأنه رأى أنها محط أنظار الفرنجة ، فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها ، وأمر ببناء بيمارستان(مستشفى) بها وكان قد أمر ببناء بيمارستان في القاهرة قبل ذلك في أحد قصور العزيز المعز لدين الله الفاطمي .

ومن أعمال صلاح الدين المدنية أيضاً ، إقامة الجسور ، وشق الترع والاهتمام بالزراعة ، وقد كان يسرح جنوده في الشتاء ، حيث كانوا يعملون بالزارعة ، فصلح بذلك حال الزراعة في عهده ... وكذلك أبطل المكوس (وهي نوع من الضرائب علي التجار) ، فراجت التجارة في عهده أيضا.

* * *

صلاح الدين القائد الزاهد

لقد حبا الله سبحانه وتعالى يوسف ابن أيوب الملقب بالناصر صلاح الدين ، قبولا في الوجه ، ورجاحة في العقل ، وهدوءا في الطبع ، وذكاء في التفكير ، وتصميما في تنفيذ الأفعال الصالحة ، وحباه لينا في الجانب ، وكرما في العطاء ، وعطفا علي الفقراء ، وإحساسا رقيقا مرهفا ، وأيضا تدينا وورعا ، وشجاعة وقوة عزيمة ، وتفكيرا سليما ، وحكمة في القول ، وفصلا في الخطاب.

تربى صلاح الدين الأيوبي تربية بدوية عربية ، فركب الخيل ، وتعلم الفروسية ، وتدرب علي القتال والنزال ، واستخدام السيف والرمح في القتال ، وتدرب علي فن القيادة العسكرية ، وتعلم ذلك كله علي يد أبيه نجم الدين أيوب ، وعمه أسد الدين شيركوه ، اللذان قادا جيوش نور الدين محمود في الموصل وحلب ودمشق ، وشارك عمه أسد الدين شيركوه في الحملات الحربية التي أرسلها نور الدين محمود إلي مصر ، وتعلم السياسة من مجالسة نور الدين محمود في مجالس حكمه ، وتعلم أمور الدين الإسلامي منذ

صغره ، حيث قرأ القرآن الكريم ، وتعلم علوم الحديث الشريف علي أيد علماء وفقهاء لهم مكانتهم في ذلك الزمان .

والأمثلة علي حسن قيادته وسياسته كثيرة ، والأمثلة علي تدينه وزهده وتواضعه كثيرة أيضا ، ولقد قدمنا الكثير عن حسن قيادته وسياسته في حروبه التي خاضها منذ أن كان في صدر الشباب عندما كان يبلغ من العمر ١٧ عاما .. فقد شارك أباه أيوب في قيادة الجيوش في الشام ، وشارك عمه شيركوه في قيادة الجيوش أثناء الحملات النورية (نسبة إلي نور الدين محمود) علي مصر واستطاع الدفاع عن الإسكندرية في أثناء هذه الحملات ، وكذلك تولي صلاح الدين الوزارة في مصر للخليفة الفاطمي العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، تولي صلاح الدين الوزارة وله من العمر ٢٢ عاما ، شاب في مقتبل العمر يتولى الوزارة في عهد كان فيه الوزير هو المسيطر علي مقدرات الدولة ، ومسير الأمور فيها ، ثم بعد ذلك خاض حروبا كثيرة من أجل توحيد كلمة المسلمين ضد الصليبيين الفرنجة في الشام وفلسطين ، وخاض حروبا كثيرة ضد الصليبيين وانتصر عليهم انتصارات عظيمة في مواقع عديدة أهمها

موقعة حطين التي استرد بعدها مدينة بيت المقدس ، كما قدمنا سابقا ، بل واستطاع تكوين دولة كبيرة قوية ، تخشاها دول العالم في ذلك الوقت ، ضمت مصر والشام وفلسطين وشمال العراق واليمن وليبيا وتونس ، ولم يستطع تكوين هذه الدولة إلا بالقيادة الحكيمة ، والشجاعة منقطعة النظير ، وبعد النظر والسياسة السليمة ، وقوة العزيمة ، وقيادة الجيوش بنفسه ، وحب قادته له ، وحب جنود له ، وحب الشعب له ، لعطفه عليه والعمل لصالحه .

وكان صلاح الدين حكيما في تعامله مع الأعداء ، عادلا في الحكم عليهم ، رحيما بالأسرى منهم ، ولم يقتل المدنين المستوطنين من الصليبين الفرنجة ، بل كان يحارب في الميدان فقط من هم أمامه من جند الأعداء ، أما إذا سلّموا أو طلبوا الأمان فكان يعطيهم هذا الأمان ، إلا من ارتكب منهم جرما فظيعا ، كأن قتل كثيرا من المدنيين العزل من النساء والشيوخ والأطفال دون ذنب جنوه ، أو دنس المقدسات الإسلامية وسب الرسول عليه الصلاة والسلام ، مثل ما فعل مع أرناط حاكم الكرك - كما بينا سابقا - ولم يخن صلاح الدين عهدا أبدا ، ولم ينتهك حرمات ، ولم يدنس مقدسات

أين كانت هذه المقدسات ، وكان دائم الاحترام لعهوده وعوده ، وكان دائم الخشية من الله سبحانه تعالى .

ومن أمثلة تدينه وزهده ، وعدله مع الأعداء قبل الأصدقاء ما يلي :-

أولا :- ما يدل علي تدينه :

تربى صلاح الدين بن أيوب تربية دينية ، حيث تعلم في (الكتاب) مثله مثل أي طفل مسلم من أب مسلم ، حيث حفظ القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة العربية ، وتعلم مبادئ النحو ومبادئ الشعر ، وحدث ذلك منذ كان طفلا يعيش مع أسرته في بعلبك .... وفي شبابه المبكر سمع الأحاديث النبوية الشريفة وتفسيرها من الحافظ أبي طاهر السلفي ، وأبي الطاهر بن عوف ، والشيخ قطب الدين النيسابوري .... وبعد استيلاء نور الدين محمود علي دمشق ، وبعد أن أصبح نجم الدين أيوب والد صلاح الدين قائدا لجيش نور الدين أخذ صلاح الدين يتردد علي مجالس نور الدين محمود ، فقد كان – كما وصفه المؤرخون في هذه الفترة – شاب مهذب هادئ الطبع ، متدين ، غيور علي الإسلام والمسلمين ، وذلك مما تعلمه من مجالسة سيده نور الدين محمود .

وكان صلاح الدين محبا للعلماء ، ورجال الدين ، ويحترمهم كثيرا ، وعندما كان العلماء يأتون إلي دمشق ، علي أيام نور الدين محمود ، من بلاد متفرقة ، مثل سمرقند ، وقرطبة ، وبغداد ، ليلقوا دروسا في مساجدها ومدارسها ، كان صلاح الدين يجلس في الجامع الأموي بدمشق ، ويستمع إليهم ، ومن الذين استمع إليهم الشيخ عبد الله بن عصرون ، الذي كان يعتبر في ذلك الوقت إمام عصره ، وقد بلغ هذا الشيخ إلي مركز قاضي القضاة في بلاد الجزيرة شمال غرب العراق في عهد نور الدين محمود ، ولما كبر هذا الشيخ وفقد بصره ، قربه صلاح الدين إليه وجعله من خواصه وأتباعه .

ومن تدين صلاح الدين أيضا ، وورعه ورحمته ، أنه عندما ألح عليه نور الدين محمود في قطع الخطبة للعاضد الفاطمي ، والدعاء للخليفة العباسي ، علي المنابر في مصر ، وكان العاضد مريضا ، فأمر بعدم إخبار الخليفة العاضد بذلك ، وقال لأتباعه: إن عوفي فهو يعلم بذلك ، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه

الحادثة قبل موته"..... وعندما توفي العاضد ، أقام له صلاح الدين مأتما ظل ثلاثة أيام ، ودفنه في قبره بكل حفاوة وتكريم .

ومن مشاهد التدين عند صلاح الدين أيضا ، أنه عندما أراد محاصرة مدينة بيت المقدس لاستردادها ، استعرض جيشه يوم (الخميس ١٦ ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ – ٢٥يونيه ١١٨٧م) ثم انتظر حتى اليوم التالي حيث صلى الجمعة ، وابتهل وتضرع ، ومعه الجنود والمسلمون المصلون ، تضرعوا إلى الله سبحانه وتعالى ودعوه أن ينصرهم على عدوهم ، ثم توجه يوم السبت إلى طبرية ، واستولى عليها بعد عدة أيام ، ثم تقابل جيش المسلمين مع جيش الصليبيين عند حطين (٢٦ربيع أخر عام ٥٨٣هـ – ٤ يوليه ١١٨٧م) ، وانتصر المسلمون انتصارا عظيما ، ثم بعد ذلك واصلو التقدم إلى بيت المقدس ، وفتحوا في طريقهم إليها المدن والحصون ، حتى وصل صلاح الدين إلى مدينة بيت المقدس ، وطلب من الحامية الصليبية تسليمها ، فقد كان يريد دخولها سلما حقنا للدماء ، ولقد سية المدينة ، إلا أن الصليبين صمموا علي الحرب والدفاع عن المدينة ، فدخلها صلاح الدين بجيشه عنوة ،

واستولى عليها (في ١٥ رجب عام ٥٨٣هـ -:شبتمبر ١١٨٧م) ، وأقيمت صلاة الجمعة في المسجد الأقصى (في ٢٧ رجب عام ٥٨٣هـ - ٢ من أكتوبر ١١٨٧م) وهو يوم الإسراء والمعراج .

ومما يدل علي تدين صلاح الدين أيضا ، أنه لم ير يتيما إلا حرك فيه عاطفة الشفقة والحنان فيهتم به ويرعاه ، وإذا قابل شيخا كبيرا ، كان يحترمه ويقدم له المساعدة .... وكان صلاح الدين محبا لأولاده ، عطوفا عليهم ، ومحبا لأهله ، فقد أتي بهم من الشام إلي مصر وقربهم إليه ، وربي أولاده تربية دينية لأنه كان متدينا ... وكان عادلا في حكمه ... وكان يعاقب كل من يخالف أحكامه التي يصدرها ، وكان يجلس للمظالم بنفسه مرتين في الأسبوع ، ويرد الظلم عن المظلومين ، وكان بابه مفتوحا للجميع ، للأغنياء والفقراء علي السواء .

ثانيا :- ما يدل علي زهده :

من الأمور التي تدل علي زهده ، أن أكثر المؤرخين قالوا أنه رغم فروسيته وشجاعته إلا أنه لم يكن مولعا بالصيد والقنص أو تربية أصناف من الطيور أو الحيوانات ، ومن زهده أيضا أنه

كان يريد أن يولي أباه (نجم الدين أيوب) أمر مصر ، وذلك بعد أن استدعى أهله إليها ، ليكونوا عونا له بعد موت الخليفة الفاطمي العاضد ، ولكن أباه رفض ذلك ، وقال له " إن الله قد اختارك لهذا الأمر ، وأنت كفء له " ونظرا لأن صلاح الدين كان يحترم أباه ويحبه ، فقد جعله على خزائن مصر ، وقرب اخوته وأهله إليه ، وولاهم المناصب ، لكي يكونوا عونا له على تحقيق ما كان يصبوا إليه ، ويعمل من أجله ، وهو تكوين دولة إسلامية قوية .

ومن زهده أيضا أنه بعد موت الخليفة العاضد الفاطمي ، أمر عامله علي قصر الخليفة (بهاء الدين قراقوش) أمره يفتح خزائن القصر ، وفرقها علي قومه وأتباعه وقادته ، بل وأرسل منها لنور الدين محمود ، ولم يأخذ لنفسه شيئا منها ، ولم يأخذ أي شي مما وجده في قصر الخليفة ، بل إن صلاح الدين رفض أن يسكن في قصر الخليفة المتوفى ، وظل في بيت الوزارة الذي كان يسكن فيه ، ولم يبهره جمال القصر وزخارفه ، والحدائق التي تحيط به .

ومن زهده أيضا ، أنه فتح دمشق (عام ٥٧٠هـ – ١١٧٤ م) دخل دار أبيه وجلس فيها مدة من الوقت ، حتى سلمت قلعة دمشق ،

وذهب إلي القلعة واستولى على ما فيها من أموال وكنوز ، وكان ذلك بعد وفاة نور الدين محمود وفرق هذه الأموال علي أهالي دمشق ، الذين فرحوا كثيرا بمقدمه ، وعندما حاصر حلب واستولى علي قلعة (إعزاز) واشتد الحصار علي حلب ، خرجت لصلاح الدين ابنة نور الدين محمود الصغرى وأخت الملك الصالح إسماعيل صاحب مدينة حلب ، فقابلها بالحفاوة والكرم ، وأعطاها مالا وهدايا كثيرة ، وسألها عن مطلبها ، فسألته أن يعيد إلى أخيها إسماعيل قلعة (إعزاز) ويفك الحصار عن حلب ، فوهبها القلعة ، وفك الحصار عن حلب ، وأوصلها إلي أسوار مدينة حلب بنفسه ، بل إنه قام بفك أسر من أسره من المسلمين في هذه الحروب دون مقابل فدخل كثير منهم في طاعته.

ومن زهده وشجاعته ، أنه بعد أن سار إلي مدينة حلب ، بعد موت الملك الصالح إسماعيل ، وفتحها ، ثم اتجه منها إلي دمشق (عام ٥٨٤هـ ـ ١١٨٨م) صرف جميع الجند ، ماعدا حرسه الخاص ، الذي أخذه ونزل به مدينة (صفد) رغم شدة البرد ، وحاصرها واستمر الحصار شهرا كاملا ، حتى سلمت المدينة ، ثم سار منها

إلى حصن (الكوكب) فحاصره ، رغم غزارة الأمطار وشدة البرد وكان يخوض في الأوحال والطين بنفسه ، حتى استطاع دخول مدينة الكوكب والاستيلاء عليها .

ومن مظاهر زهد صلاح الدين أيضا ، ما قاله لابنه الظاهر ، يوم أرسله حيث ولاه أحد المدن ، قال له " أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به ، فإنه سبب نجاتك ، واحذر من الدماء والدخول فيها ، والتقلد بها ، فإن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية ، والنظر في أحوالهم ، فأنت أميني وأمين الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء ، وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت إلا بمدارات الناس ، ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقي على أحد ، وأحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله ، يغفره الله بتوبتك إليه ، فإنه كريم" .

ومن مظاهر زهده أنه لا يمكن أن يلحظ أي إنسان من أحواله مع رعيته أبهة الملك ، وعظمة السلاطين ، فأي فرد من رعيته يستطيع الوصول إليه من غير عناء في أي وقت ، وفي أي مكان ، لا

يعترضه حاجب ، أو صاحب باب ، أو حرس خاص ، يذهب صاحب المظلمة بنفسه ، دون خوف ولا رهبه ، ويبث شكواه ، وقد تتزاحم عليه الوفود ، من أصحاب المظالم ، فلا يظهر ضجرا ولا تأففا ، وما توافد الناس عليه إلا لمعرفتهم بلين جانبه ، وإحقاقه للحق ، وانه لطيف معهم في كل حال ، ومع الجميع ، لا فرق بين غني وفقير ، وفوق ذلك كله ، كان رقيق القلب سريع التأثر ، تتحرك عواطفه ، وتدمع عيناه عند سماع شكوى الضعفاء والمساكين ، فكان يجزل لهم العطاء ، وكان قلبه مملوءا حبا للإنسانية ، وأعمال البر والإحسان ، وكان من الشفقة بحيث لا يستطيع أن يرى خادما له يضرب ، وكان قلبه يتحرك حنانا على كل يتيم ، ويقوم بإيوائه إذا لم يكن له أهلاً ، وكان بسيطا في ملبسه ومأكله ومسكنه ، ولما تم بناء منزل جميل له في دمشق ، نظر إليه وقال " ما كنا لنجلس في هذا المكان إلى الأبد ، هذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت ، وما نحن هنا إلا لخدمة الله سبحانه وتعالى ".. لم تفتنه أموال ملكه الواسع ، وكان يقول " المال والتراب سيان عندي " لذلك كان يكره أن يمر عليه سائل فلا

يعطيه ، وإنما إذا طلب منه سائل شيئا ، أعطاه أكثر مما سأل ، ومن كثرة بذله وعطائه ، كان أعوانه ينكرون وجود المال لديهم ، حتى لا يكثر البذل والعطاء ، حتى لا تفنى الأموال ولا يجدون ما يعدون الجيوش لحرب الأعداء ، ويروى أنه عند وفاته ، لم يجد الناس لديه مالا ، ولم يترك ضياعا ولا قصورا ، ويروي بعض المؤرخين أنه لم يترك بعد وفاته إلا ٤٧ درهما من الفضة .. والغريب أن قبره الذي دفن فيه في دمشق ، وهو بجانب الجامع الأموي ، قبرا بسيطا في حديقة لا تزيد عن خمسة أمتار طولا وعرضا .

ثالثا :- ما يدل علي عدله ومعاملته الحسنه لأعدائه :

هناك أمثلة كثيرة تدل علي عدله ومعاملته الحسنة لأعدائه ، سوف نروي بعضا منها حسب ما رواه المؤرخون ، فمثلا بعد انتصار صلاح الدين علي الصليبين في موقعة حطين (عام ٥٨٣هـ - ١١٨٧ م) انتصارا عظيما ، عاد إلي طبرية لكي يستعيدها بعد أن تركها لكي يقضي علي الصليبين في حطين ، وكانت زوجة (أرناط) وأولادها في طبرية ، فأرسلت إلي صلاح الدين تطلب منه الأمان فأمنها ، وخرجت من طبرية هي وأولادها وحاشيتها ،

وأوصلها إلي حيث أرادت بكل احترام ، ولم يتعرض لها بسوء ، حيث اتجهت إلي مدينة صور – رغم أن زوجها هو (أرناط) أمير الكرك الذي قتله صلاح الدين ، بسبب اعتدائه على العزل من الحجاج المسلمين ، وبسبب سبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورغم ذلك عفا عنها وعن أولادها وأمنها ، وتركها ترحل إلي حيث تريد .

وحادثة أخرى تدل على عدله وكرمه ، وحسن معاملته لأعدائه ، فعندما انتصر صلاح الدين على الصليبين واسترد بيت المقدس ، أعطى الصليبين مهلة لكي يرحلوا عن المدينة ، وظل خارج المدينة حتى يخرج منها كبراء الصليبين ، ومن أراد من رجال الدين منهم ، وذلك حتى لا يجرح كرامتهم ، فلما خرجوا منها ، دخل هو وقواده ورجاله ، مكبرين شاكرين فضل الله وكرمه عليهم بالنصر المبين ، ولما علم صلاح الدين أن أحد كبراء الصليبين ويدعي (يليان) قام بدفع ٣٠ ألف دينار فديه لطائفة الفقراء من الرجال ، وكان صلاح الدين قد فرض على كل رجل قادر عشرة دنانير ، نظير فكه من الأسر وخروجه من بيت

المقدس إلى حيث يشاء حرا طليقا ، وذلك لأن جميع من كان في المدينة من الرجال ، قد قاتلوه عندما حاصر المدينة ، وأراد أن يدخلها سلما فرفضوا وأصروا على القتال ، ورغم ذلك عندما علم صلاح الدين بما فعله (يليان) ، قام بإعفاء عشرة آلاف رجل من الفقراء من دفع العشرة دنانير ، وطلب العادل من أخيه صلاح الدين إعفاء سبعة آلاف رجل آخرين ، فأعفاهم ، وبذلك سمح صلاح الدين للكثير من الصليبيين بالرحيل دون فدية يدفعونها ، بل إن صلاح الدين قضى يوما أمام باب مدينة بيت المقدس وهو مفتوح للعجزة والفقراء والمساكين من الصليبيين ، ليخرجوا بدون فدية ، وأذن لرجال الدين من الصليبيين وبقية الناس منهم أن يحملوا معهم ما شاءوا من المتاع والأموال ، بعد دفع الفدية التي كان مقدارها عشرة دنانير من القادرين منهم ، وأمر جنده وقادته بالمحافظة على النظام ، وعدم التعرض لهم وهم يخرجون من المدينة ، فلم يحدث ما يكدر صفوهم بأي حال من الأحوال ، لأن هذه كانت أوامر السلطان صلاح الدين .

ولمـا رأى صـلاح الـدين أن عـدداً كبيـراً مـن الفـرنجة الصـليبيين يحمل علـى ظهره والديـه الضـعيفين ، أو أقاربـه المرضـى ، تأثر كثيراً ، وأمر بإعطـائهم أموالاً ، ودوابـاً لتحمل أمتعتهم ، وكانـت شفقته وعطفه علـى النسـاء أكثر ، واحترامه لهن أعظم ، فقد كان فـي بيت المقدس إحدى نسـاء ملك من ملوك الروم سابقاً ، وكانت قد ترهبت ، والتف حولها كثير من الخدم والأتباع ، وكانت ذات مـال كثيـر ، فأمنها السلطان صـلاح الـدين علـى نفسـها وأموالها وأتباعها ، وملكـة أخرى كانت تدعى (سيبيل) كانت موجودة بالمدينة ، وكـان زوجهـا مسـجوناً بقلعـة نـابلس ، فاسـتأذنته فـي الرحيل هي وأتباعها ، فأذن لهـا وخاطبها بكل احترام ، وسيرها إلـى حيث زوجهـا السـجين فـي قلعة نابلس ، وسمح لها بالسكن في مدينة نابلس بالقرب منه .

ولمـا رأى جمـوعاً مـن النسـاء الـراحلات باكـيات ، سـألهن .. مـا خطبكن ؟ .. فقلن له : أيها السلطان ، نحن راحلات عن هذه الديار إلـى الأبد ، تاركين أزواجنا وآباءنا فـي الأسر عندك ، وهم عدتنا فـي حياتنا ، وسـلاحنا فـي أيامنا ، فـإن وهبتهم لنا ، فقد وهبت لنا

النعيم ، وأبعدت عنا شقاءنا ، فتأثر السلطان صلاح الدين من بكائهن ، وأمر بإعطاء الأمهات أبنائهن ، والزوجات أزواجهن ، والبنات آبائهن ، وأقسم أنه سوف يعامل من تبقى في الأسر معاملة حسنة .

كانت هذه المعاملة التي عامل بها السلطان المنتصر صلاح الدين الأيوبي ، أعداءه من الصليبيين ، تخالف تماماً ما كانوا يعاملون بعضهم بعضاً ، وتختلف عما كانوا يعاملون به الأعداء ، من قتل وذبح للأبرياء ، والتنكيل بالضعفاء ، وسلب أموال أعدائهم ، بل إن المؤرخين يرون أن المسيحيين الذين غادروا مدينة القدس ، وذهبوا إلى مدينة إنطاكية ، لاقوا من أميرها المسيحي الصليبي الطرد والتشريد ، ولم يأوهم إلا المسلمين في المدن المجاورة لإنطاكية ، وكذلك عندما ذهب هؤلاء المسيحيون إلي طرابلس (في لبنان) لم يجدوا مأوى ، بل إن الصليبين الموجودين في المدينة ، طاردوهم ونهبوا أموالهم التي خرجوا بها من مدينة بيت المقدس .

وموقف آخر للسلطان صلاح الدين يدل علي عدله ومعاملته الحسنة لأعدائه ، أن البطريارك الذي كان في مدينة القدس ، خرج

من المدينة بأمواله وكنوزه وهي كثيرة جداً ، ولم ينفقها فداء للمساكين والفقراء من المسيحيين ، ورغم ذلك عندما قيل لصلاح الدين ، لم لا تصادر هذه الأموال والكنوز ، وتستعملها في تقوية جيوش المسلمين ، فقال لهم السلطان صلاح الدين ، لا آخذ منه غير العشرة دنانير ، ولا أغدر به أبداً .. وهنا يقول المؤرخ الإنجليزي (استانلي) في كتابه عن صلاح الدين " قد وصل الأمر إلى أن سلطاناً مسلماً ، يلقي على راهب مسيحي ، درسا في معنى البر والإحسان " .. أين ذلك من أفعال الصليبيين الفرنجة ، الذين أتوا من أوربا ليسرقوا بلاد المسلمين في المشرق ، فالمؤرخون -- وخاصة الأجانب منهم -- يروون ما فعله جنود (جود فري) في الحملة الصليبية الأولى عندما استولوا على مدينة بيت المقدس عام ١٠٩٩م ، فقد روى هؤلاء المؤرخون أن الصليبيين كانوا يقتلون آلافاً من المسلمين في الشوارع وفي البيوت ، لدرجة أن كثيراً من الناس لكي يهربوا من القتل ، كانوا يلقون بأنفسهم من فوق الأسطح أو من فوق الأسوار ، ولم ينجهم هروبهم إلى المساجد ، فقد كانوا يقتلون فيها ، ويقول هؤلاء

المؤرخون الإنجليز وغيرهم ، أن الجنود الصليبيين كانوا يمشون فوق جثث الموتى في الشوارع . ولم تأخذهم شفقة ولا رحمة من بكاء النساء على أزواجهن ، ولا الأطفال على آبائهم ، لم تتحرك قلوب هؤلاء شفقة على قتل الأبرياء ، الذين وصل عددهم نحو سبعين ألف نفس ، قتلت بلا ذنب ولا جريرة .

وموقف آخر يبين تسامح صلاح الدين ، وحسن معاملته لأعدائه ، أنه بعد وصوله دمشق عام (٥٨٤هـ - ١١٨٨م) ، ورحيله عنها ومعه جموع كثيرة بغرض فتح المدن التي لم يكن قد فتحها بعد ، ففتح (أنطرطوس) وكان بها الملك (جوي) الصليبي الذي كان يحكم بيت المقدس قبل فتحها ، والذي أسره صلاح الدين ، قام صلاح الدين بإطلاق سراحه ، بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق على أن يغادر بلاد الشام إلى أوربا ، وألا يجرد على صلاح الدين سيفا مرة أخرى ، وللأسف أن هذا الشخص (جوي) ذهب إلى مدينة صور ، ولم يرحل إلى أوربا كما وعد ، بل إنه عاد إلى عدوانه ضد صلاح الدين مرة أخرى ، بعد أن ذهب إلى طرابلس (في لبنان) وجمع الجنود بها .. وكذلك بعد استيلاء صلاح الدين

على مدينة اللاذقية ، وامتلك ما حولها من القلاع ، واستولى على قلعة (برزيه) ، بعد أسر حاكمها وزوجته ، وأولاده ، وفيهم ابنة له كانت عروساً قد فرقت الحرب بينها وبين زوجها، فأمر صلاح الدين بالبحث عنه ورده إليها ، وهذا كرم كبير من السلطان صلاح الدين نحو أحد أعدائه ، شفقة عليه ورأفة به ، وعطفاً على زوجته ، العروسة حديثة الزواج .

وكذلك عندما وصل صلاح الدين خبر سقوط حصن الكرك في يد أخيه العادل ، بعد أن أخرج النساء والأطفال من الفرنجة الصليبيين ، بعد ما أصابهم الكثير من الشدة والضنك ، حتى أنهم أكلوا لحوم الخيل والدواب ، وعندما علم صلاح الدين بذلك بحث عن هؤلاء الأشخاص من النساء والأطفال واشتراهم ممن كانوا قد اشتروهم ، وردهم إلى أهلهم .

ومن أمثلة كرم السلطان صلاح الدين ومعاملته لأعدائه معاملة حسنة ، أنه بالرغم من مجيء الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الأسد لاسترداد مدينة بيت المقدس ، وأن الصليبيين كانوا يحاصرون عكا ، إلا أن صلاح الدين عندما علم بمرض

استولوا على عكا ، قتلوا كثيراً من سكانها ويذكر المؤرخ الإنجليزي (استانلي) الذي كتب كتاباً عن صلاح الدين ، أن ريتشارد ملك إنجلترا قتل (٢٧٠٠) أسيراً مسلماً أمام معسكر المسلمين ومعسكر الفرنجة الصليبيين ، وذلك لإرهاب المسلمين .. ورغم كل هذه البشاعة في تعامل الصليبيين الفرنجة مع أعدائهم من المسلمين ، إلا أن صلاح الدين استمر على طريقته في تعامله مع أعدائه ، بالمحافظة على العهود ، وعدم التعرض للمدنيين منهم بأي أذى ، والبعد عن سفك الدماء والقتل إلا في ساحة القتال .. ومن الأمثلة الطريفة على نبل صلاح الدين وتعامله بالحسنى مع أعدائه ، أنه عندما رأى ريتشارد ملك إنجلترا يشرف على قواته راجلاً دون فرس ، أرسل له جوادين عربيين أصيلين ، وقد كانت هذه المعاملة الحسنة من جانب صلاح الدين لريتشارد قلب الأسد ، سبباً أساسياً لعقد الصلح بين الطرفين وهو صلح الرملة،، وقبل صلح الرملة ، كان صلاح الدين يبدي دائماً النية الحسنة ، ويدلل على حبه للسلام قبل الحرب ، وأنه لا يلجأ للحرب إلا مضطراً ، وأنه يكره سفك الدماء ، وهذا ما حدث عندما اتصل ريتشارد ملك إنجلترا بالعادل

أخو صلاح الدين ، وأبدى رغبته في الصلح ، وذلك بعد أن يئس من إحراز أي نصر على صلاح الدين وجيشه ، فقدم ريتشارد عرضاً للصلح ينص على الآتي :

أولاً : أن يتزوج العادل أخو صلاح الدين من أخت ريتشارد ملك إنجلترا .

ثانياً : يتنازل صلاح الدين لأخيه العادل عن البلاد التي استولى عليها على شاطئ البحر المتوسط بالشام .

ثالثاً : يتنازل الملك ريتشارد عن البلاد التي احتلها كصداق لأخته.

رابعاً : أن تكون مدينة القدس ملكاً للزوج والزوجة بصفتهما محايدين ، على أن يفتحان أبوابها للمسلمين والفرنجة على السواء.

خامساً : أن يتبادل الفريقان الأسرى ، وأن تعود خشبة الصليب المقدس التي أخذها المسلمون إلى الفرنجة .

ورغم الإجحاف الواضح في بعض بنود المعاهدة ، إلا أن صلاح الدين وافق عليها حقناً للدماء وحباً في السلام ، إلا أن القساوسة

ورغم الإجحاف الواضح في بعض بنود المعاهدة ، إلا أن صلاح الدين وافق عليها حقناً للدماء وحباً في السلام ، إلا أن القساوسة ورجال دينهم غضبوا من هذه المعاهدة ورفضوها ، وقالوا كيف يتزوج أمير مسلم من أميرة مسيحية ، وظلوا يضغطون على الأميرة حتى رفضت هذا الزواج ، وفشلت المعاهدة وعاد الطرفان إلى الحروب ، إلا أن كفت المسلمين رجحت ، وأحرزوا انتصارات كبيرة على جيوش ريتشارد ، هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى ، مثل الخلافات بين قادة جيوشه ، والقلاقل الموجودة في إنجلترا نفسها ، وأن أخو الملك طمع في العرش ، بالإضافة إلى يأس ريتشارد نفسه من إحراز أي تقدم في محاولاته لاستعادة بيت المقدس ، التي من أجلها جاءت الحملة الصليبية من أوربا ، فأرسل ريتشارد رسله إلى صلاح الدين بالقرب من مدينة الرملة ، وأرسل إلى الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين لكي يتوسط بينه وبين أخيه السلطان في عقد الصلح ، وفعلاً تم صلح الرملة (في شعبان ٥٨٨هـ - سبتمبر ١١٩٢م) .

ومن أهم بنوده ما يلي :-

أولاً : أن تكون بلاد الشاطئ من صور إلى عكا تحت حكم الصليبيين الفرنجة .

ثانياً : أن تخرب مدينة عسقلان لكي تكون عائقاً إذا فكر الفرنجة في الحرب ومحاولة استعادة بيت المقدس .

ثالثاً : أن يسير المسلمون والفرنجة في أملاك بعضهما في أمان .

رابعاً : لا يمنع حجاج الفرنجة من زيارة البيت المقدس في القدس (كنيسة القيامة)

خامساً : أن يستمر العمل بهذا الصلح ثلاث سنوات وبضعة شهور .

وبتوقيع تلك المعاهدة ، انتهت فترة من فترات الصراع الدامي بين الصليبيين الفرنجة المستعمرين ، وبين المسلمين أصحاب البلاد .

ولقد رأينا من خلال هذه الحروب ، التي أطلق عليها المؤرخون ، الحروب الصليبية ، رأينا كيف كان التعامل من الصليبيين الفرنجة للمسلمين ، ومعاملة المسلمين للصليبيين الفرنجة ، ورأينا كيف قدم صلاح الدين الأيوبي مثلاً يحتذى به في التعامل النظيف مع

العدو ، منتهى العدل ، ومنتهى التعامل بشرف وصدق ، وحفاظه على الوعود والعهود مع العدو مهما كانت النتائج .

مما تقدم رأينا كيف كان السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، رجلاً قائداً من طراز فريد ، وحاكماً سياسياً بارعاً ، ورجلاً محارباً جسوراً يقود بنفسه جيشه ، وإنساناً عطوفاً رحيماً مع أصدقائه وأعدائه على السواء ، محباً لشعبه ووطنه ، ورجلاً متديناً عارفاً بدينه ، مدافعاً عنه ومعتزاً به ، ورجلاً زاهداً لا تهمه الدنيا في شيء ، فقد عاش من أجل قضية وطن وأمل أمة ، هي استعادة مدينة بيت المقدس والمسجد الأقصى من أيدي الصليبيين الفرنجة ، وقد استطاع تحقيق ذلك الحلم بعد أن وحد كلمة المسلمين ، وأنشأ جيشاً قوياً محباً لقائده مطيعاً لأوامره ، ومنفذاً بدقة لجميع خططه ، من أجل حماية وطنه والانتصار على عدوه .

* * *

وفاة صلاح الدين الأيوبي

منذ أن انتصر صلاح الدين في موقعة خطين ، واستيلائه على مدينة بيت المقدس ، ومجيء الحملة الصليبية التي كانت تريد استرداد بيت المقدس بقيادة أمراء وملوك أوربا ، وعلى رأسهم فيليب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، منذ ذلك الوقت وصلاح الدين وقادته وجيشه في حروب دائمة مع الصليبيين الفرنجة القادمين من أوربا والفرنجة المتواجدين في بعض أجزاء الشام وفلسطين حتى حدث صلح الرملة (عام ٥٨٨ هـ - ١١٩٢م) ، وأصبحت كل فلسطين في أيدي المسلمين وكذلك الشام ، فيما عدا ذلك الشريط الضيق من صور إلى عكا على ساحل البحر المتوسط ، وأصبح بذلك صلاح الدين قوياً لا يخاف ولا يهتز لأي قوة أخرى ، وأعاد للإسلام مجده وقوته ، ووحد بين كثير من بلاد المسلمين .. وبعد صلح الرملة سار السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى مدينة بيت المقدس لكي يتفقد أحوالها ، وينظم أمورها ، ويفتح المدارس بها ، وينشئ المستشفيات بها .. ورحل بعد ذلك إلى الجهات الساحلية ، يتفقد

حصونها ، ويصلح ما يحتاج لإصلاح وترميم ، فوصل نابلس وبيسان والكوكب وبرية ثم إلى بيروت ، ثم سار إلى دمشق فوصلها في (٢٦ شوال عام ٥٨٨هـ - ٤ نوفمبر ١١٩٢م) ، ففرح الناس بقدومه ، حتى أنهم أغلقوا الحوانيت (الدكاكين) وهبوا لاستقباله ، ولم لا وهو الذي نشر بينهم العدل ، وقضى على الفتن ، ونشر الأمن والأمان في البلاد ، وأخذ السلطان صلاح الدين ينظم الأمور في دمشق ، ويوزع الصدقات على الفقراء ، وأخذ في تسريح الجنود إلى بلادهم ، وهو في خلال ذلك كله في أحسن صحة وأجود حال ، ويخرج للصيد ثم يعود ، وما زال على هذه الحال حتى خرج يوم (١٤ من صفر عام ٥٨٩هـ - ٢٠ فبراير ١١٩٣م) لملاقاة الحجاج العائدين من مكة المكرمة ، وكانوا جمعاً كبيراً يكبرون ويسبحون فرحين بعودتهم بعد أداء فريضة الحج ، وتأثر السلطان من هذا المنظر المهيب ، لدرجة أنه بكى تأثراً ، وخاصة وأنه كان يريد تأدية فريضة الحج معهم في هذا العام بالذات ، ولم يكد السلطان يقضي ليلته ، حتى أخذته حمى شديدة ، ولم تمهله إلا أياماً قليلة ، وفارق بعدها الحياة ، ومات (يوم الأربعاء ٢٧ صفر عام

٥٨٩هـ - ٢٤ مارس ١١٩٣م) ، وكان قد بلغ من العمر ٥٧ عاماً ، قضى أكثرها في طلب العلم ، ومعرفة الحديث الشريف ،وحفظ القرآن الكريم ، على أيدي شيوخ أجلاء ، ثم في الجندية تحت قيادة أبيه نجم الدين أيوب ، أو تحت قيادة عمه أسد الدين شيركوه ، حتى تولى الوزارة في عهد الخليفة الفاطمي العاضد ، حيث تولى المسئولية الكبرى ، وأخذ في تحقيق الحلم الأكبر ، وهو توحيد كلمة المسلمين واستعادة بيت المقدس والمسجد الأقصى،وكان له ما اراد ، وكون دولته القوية التي ضمت شمال العراق والشام وفلسطين ومصر واليمن وليبيا (برقة) وتونس ، ونشر العدل والأمن والأمان فيها .

ولذلك بكته الناس جميعاً ، ولم يخرج أحد يوم مماته من منزله حزناً عليه ، ولم تبق عين إلا زرفت عليه الدمع حزناً ، ورثته ملوك وأمراء البلاد رثاء حزيناً ، ودفن حيث مات ، بعد أن تم تكفينه بأبسط أنواع الأكفان ، وبعد ثلاث سنوات من وفاته ، أعد له ابنه الأفضل قبراً بجوار الجامع الأموي في دمشق ، ونقل رفاته إليه في (يوم عاشوراء عام ٥٩٢هـ) ، في مشهد مهيب ،

وجلس ابنه الأفضل في الجامع الأموي ثلاثة أيام ، يتلقى العزاء في والده السلطان صلاح الدين .. وقد رثاه الشعراء فيما بعد رثاء كثيراً ، ومن أهم قصائد الرثاء ، قصيدة لعماد الدين الكاتب – قال فيها :-

شملُ الهدى والمُلْكِ عمّ شتاتُهُ ** والدّهرُ ساءَ وأقلعتْ حسناتُهُ
أين الذي كانت له طاعتنا • ** مبذولة ولربه طاعاته ••
بالله أين الناصر الملك الذي ** لله خالصة صفت نياته ••
أين الذي عنت الفرنج لبأسه ** ذلاً ومنها أدركت ثاراته••
في نصرة الإسلام يسهر دائماً ** لتطول في روضي الجنان سنانه
ملك عن الإسلام كان محامياً ** أبداً إذا ما أسلمته حماته ••
من لليتامى والأرامل راحم ** متعطف مفضوضة صدقاته •
من للثغور وقد عداها حفظه ** من للجهاد ولم تعد عاداته •
ياوحشة الإسلام يوم تمكنت ** في كل قلب مؤمن روعاته •
وقف الملوك على انتظار ركوبه ** لهم ففيم تأخرت ركباته ••
كانوا وقوفاً أمس تحت ركابه ** واليوم هم حول السرير مشاته
هذى مناشير الممالك تقتضي ** توقيعه فيها فأين دواته ••
قد كان وعدك في الربيع بجمعها ** هذا الربيع وقد دنا ميقاته •

مـات السلطان الناصـر صـلاح الـدين يوسف بـن أيـوب ، وبمـوتـه فقدت الأمـة الإسـلامية كلهـا سـلطاناً قـوياً ورعـاً تقياً ، أعز أمته الإسـلامية ، وأقالهـا من عثرتها ، التي كادت تؤدي بها إلى الهلاك والـدمار والضـياع ، توفـى السـلطان صـلاح الـدين الأيوبـي ، وقـد شـهد لـه الأعداء قبل الأصدقاء بأنـه كـان أسـتاذاً كبيـراً ، وحاكمـاً عظيماً ، وأخذوا عنه دروساً في الشجاعة والإقدام ، والفروسية ، ودروسـاً فـي الكـرم ومكـارم الأخـلاق ، والعـدل بـين الـناس ، صـغيرهم وكبيـرهم ، ضـعيفهم وقـويهم ، غنـيهم وفقيـرهم ، كـان ينـبوعاً للـرحمة والشـفقة ، يـرحم الفقـراء والمسـاكين ، ويعطـف عليهم ، ويعامل أسراه معاملـة حسنة ، لم ينقض عهداً ، ولم ينس وعداً ، وكانت لـه فضـائل كثيـرة ، شـهد بهـا المؤرخـون الأجانـب وسطروها في كتبهم .

* * *

خاتمة الكتاب

هذه هي حكاية حاكم عربي إسلامي ، منذ ولادته حتى مماته ، نقدمها مثلاً نحتذي به ، وقدوة نسير على دربها ، ونتعلم من أفعالها ، ونحاول أن نأخذ من صفاتها ونقتدي بها ، وخاصة شباب الأمة العربية والإسلامية ، فلهم في صلاح الدين قدوة حسنة ، فقد كان فارساً منذ صغره ، وقائداً منذ بداية شبابه ، ووزيراً في أول العقد الثالث من عمره ، حيث تولى الوزارة وله من العمر ٢٢ عاماً ، وتولى مسئولية قطر عربي هام هو القطر المصري ، حيث كان الوزير في ذلك الوقت هو المهمين والمسيطر على جميع شئون البلاد المصرية . ولم يكن صلاح الدين يوما شاباً مستهتراً ، ولا باحثاً عن الشهرة ، ولا باحثاً عن اللهو واللعب ، وهو الذي كان من أسرة تولت قيادات الجيوش ، وحكمت المدن والحصون ، ورغم ذلك كان شاباً متديناً ، مقبلاً على العلم والعلماء ، يحترم كل ذي علم ، ويحترم الكبير ، ويعطف على الصغير والفقير .

وهب صلاح الدين نفسه ، وهو في عنفوان الشباب لقضية وطنه العربي والإسلامي ، أحس بقضية وطنه وعمل على حلها ، جمع

شتات الأمة الإسلامية في وقت عصيب ، وكون الجيوش ، وقضى على جحافل الصليبيين ، واسترد بيت المقدس والمسجد الأقصى ، بعد أن هزمهم في موقعة حطين ، وهزم ملوك أوربا وجيوشها ، عندما جاءوا غزاة يريدون استرداد مدينة بيت المقدس ، وأجبرهم على عقد صلح معه ، والعودة إلى بلادهم مقهورين ، وكون دولة كبرى يهابها العالم في ذلك الوقت ، شجاعاً لا يخاف في الحق لومه لائم ، شديد البأس في ساحة القتال ، عطوفاً رحيماً وقت السلم ، يكره سفك الدماء ، ولا يلجأ إليه إلا مضطراً ، وكان محباً للسلم والسلام ، ولم يكن يعرف معنى الاستسلام ، وكان يقدم دائماً السلام قبل الحرب ، فإن كان ولا بد من الحرب ، فهو القائد المغوار ، الذي يقود جيشه بنفسه ، ويخطط للهجوم والدفاع ويدوخ الأعداء ، ويهزمهم شر هزيمة ، ويعفو عن الكثير منهم بعد انتصاره عليهم ، ويعامل أسراه معاملة حسنة ، عادلاً في حكمه ، محباً للفقراء والمساكين ، وكان يجلس بنفسه ليقضي في المظالم ، ولا يحابي أحداً على أحد ، ولا ينصر غنياً على فقير ، ولا قوي على ضعيف إلا بالحق ، فالكل أمامه سواء .

وفي نهاية هذه الخاتمة ، أنقل ما قاله (الشيخ السبكي) صاحب كتاب (طبقات الشافعية) حيث قال في السلطان صلاح الدين أنه : " ملك البلاد ، ودانت له العباد ، وأحبه الخلق ، ونصر الإسلام ، وهزم الإفرنج وكسرهم مرات ، وفتح المدن الكبرى ، وأقام في السلطنة أربعاً وعشرين سنة (أي ظل يحكم بلقب سلطان مدة ٢٤ سنة) ، يجاهد في الله بنفسه وماله ، وكان ملكاً عظيماً شجاعاً ، مهاباً عادلاً ، يملأ العيون روعة ، والقلوب محبة ، قريباً بعيداً ، عابداً قانتاً لله ، لا تأخذه في الله لومه لائم ، مجلسه يجمع الفضلاء والفقراء ، أصحابه كأنهم على قلب رجل واحد ، محبة فيه واعتقاداً وطواعية " .

رحمة الله عليك يا صلاح الدين ، يا مثلاً مشرفاً للإسلام والمسلمين ، يا رجلاً أحب الله ، فأحبه الله ، وجعل جميع عباده يحبونه ، لك الخلد في جنة الخلد ، ومقعد صدق عند مليك مقتدر .



تم الكتاب بحمد الله

مصادر ومراجع الكتاب

م	اسم المصدر أو المرجع	اسم المؤلف
١	الكامل في التاريخ (الجزء الحادي عشر)	ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني)
٢	العبر وديوان المبتدأ والخبر (الجزء الخامس) ص٢١٧–٢١٨–٢١٩ طبعة بولاق عام ١٢٨٤هـ–١٨٦٥م	ابن خلدون
٣	دائرة المعارف	بطرس البستاني
٤	دائرة المعارف الإسلامية (المجلد رقم ١٤) من ص٢٦٣ حتى ص٢٧٦	د.عبد الحميد يونس وآخرون
٥	وفيات الأعيان – طبعة القاهرة عام ١٣١٠هـ - ١٨٩١م	ابن خلكان
٦	طبقات الشافعية	السبكي
٧	المختصر في تاريخ البشر (المجلد الثالث) طبعة القاهرة عام ١٣٢٥هـ - ١٩٠٦م	أبو الفدا

٨	دائرة المعارف القرن العشرين (المجلد الخامس) الطبعة الثانية – القاهرة عام ١٩٢٤م من ص٥٤٢ حتى ص٥٦٠	محمد فريد وجدي
٩	النوادر السلطانية – القاهرة عام ١٣١٧هـ - ١٨٩٨م	ابن شداد
١٠	حياة صلاح الدين الأيوبي (الطبعة الثانية) القاهرة عام ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦م	الدكتور أحمد بيلي
١١	تاريخ الإسلام السياسي	د. حسن إبراهيم حسن
١٢	صلاح الدين (Saladin) (Stanly Poole)	استانلي بول
١٣	دائرة المعارف البريطانية **Encyclopedia Britannica**	

الفهرس